قصص

خطوط طويلة الأجل

محمد فرج

دار العين للنشر

خططٌ طويلة الأجل

محمد فرج

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف للفنان: وليد طاهر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٨/٢٠٢٣٢
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 518 - 6

خططٌ طويلة الأجل

قصص

محمد فرج

دار العين للنشر

إلى محمود..

فلنحتفل

غالبًا حال يكون الواحد شـابًّا، يتصور أن العالم إمَّا أن يسير كما يرى، وإمَّا سينهار العالم ويزول، ولكن مع الوقت ينهار الواحد ويزول، ويبقى العالم يخرج من هيستريا إلى أخرى بسلاسةٍ مطلقةٍ.

أثـر المنديـل

بالأمس ضاعت نظَّارتي..

أحد أسوأ مخاوفي على الإطلاق، فمنذ وعيتُ لنفسي وأنا أرتدي نظَّارةً. وُلدتُ بقصرٍ شـديدٍ في النظر، لذا أرتدي النظَّارة منذ كان عمرى سـنتين كما أخبرني أبواي. أول ما أفعله عند الاستيقاظ هو أن أتحسس بيدي أين وضعتها قبل أن أنام، وأصاب بالارتباك الشديد عندما لا أجدها، إذا غيَّر أحدهـم مكانها أثناء نومي مثلًا. ومع نمو حركتي، زرع فيَّ أبواي الخوف من انكسـار النظَّارة، بالتدريج توقفتُ عن الجري في المدرسـة، خوفًا من

سقوطي وانكسار نظَّارتي الثقيلة، وبعد قليلٍ توقفتُ عن معظم الألعاب الجماعيـة التي يمكن أن تزيد فرص كسرهـا، ولكن ذلك لم يمنع تحطمها مرتين أو ثلاثًا أثناء المرحلة الابتدائية، ومع كل مرةٍ كانت تنكسر فيها كانت التحذيرات تزيد، وحركتي تقلُّ، وخوفي من انكسار النظَّارة يحكم تحركاتي. لم أدخل في شجاراتٍ مع أحدٍ، كنتُ حريصًا طوال الوقت على ألَّا أفتعل شِجارًا، وألَّا أترك نفسي أنزلق إلى شِجارٍ، ساعدني في ذلك قليلًا حجمي الكبير، وجعلني خوفي أبدو كطفلٍ هادئٍ ضخمٍ.

في مراهقتي، تمنى أكثر من زميلٍ فاشـلٍ دراسيًّا، أن يكون له جسدي، حتى يتمكن من خوض معارك أكثر، أو الانتصار بسهولةٍ في الشِّجارات التـي يدخلها مع أبناء المـدارس أو المناطق الأخرى، والتي غالبًا ما تدور حول البنات، كنت أفلسفُ لهم الأمر أحيانًا، بأنَّ الرب جعلني هادئًا كي لا أبطش بالآخرين، لأني لو كنت عصبيًّا أو كثير الشِّجارات لكنت جبارًا مُؤذيًا، لذا كانت تلك المعادلة هي الأصلح للحفاظ على سلامتي وسلامة الآخرين. وكانت النظَّارة هي معيار السلامة.

بدون النظَّارة أرى العالم غائمًا، والأشخاص أشباحًا، لا يمكنني تحديد ملامحهم، أعرف أجساد مَن حولي بحكم كوني أعرف تلك الأجساد بالنظَّارة، لكن إذا كنت في الشارع واحتجتُ إلى أن أمسح عدسات نظَّارتي، يبدو كلّ المارة كأنهم شخوصٌ مموهةٌ، لهم رأسٌ، وجسدٌ، ويتحركون على سيقان، العربات تبدو كأنها صناديق متحركةً، بالتأكيد أعرف أنَّ هؤلاء بشرٌ يمشون

في الشـارع، وأنَّ هذه سـياراتٌ، لكن في تلك اللحظـات التي أخلع فيها نظَّارتي، يتحول العالم إلى كتلٍ شبحيةٍ غائمة.

لكن بُالأمس كي أكون صريحًا، لـمْ تضع النظَّارة نتيجة سهوٍ مني، أو خطـأٍ، أنا الذي ألقيتُها من فوق الكوبـري العالي في المياه، كنتُ قد نويتُ الانتحار، بإلقاء نفْسي في المياه من فوق الجسر الكبير، لا أعرف لماذا قررتُ إلقاء النظَّارة أولًا، لم تكن النظَّارة فقط، لكن النظَّارة ومنديلٌ قماشيٌّ، قررتُ أن ألقي بهما أولًا ثم أقفز أنا. كان الكوبري عاليًا، والمياه تبدو شديدة الزرقة، وتجري بعنفوانٍ في مجرى النهر تحت الكوبري، شـاهدتُ النظَّارة تسـقط ويتبعها المنديل، لا أعرف أيضًا لماذا قررتُ إلقاء المنديل مع النظَّارة، فأنا لا أستعمل هذه المناديل بالأساس، طافت في رأسي ساعتها نكتةٌ سمجةٌ كان أبي كثيرًا ما يرددها ونحن صغارٌ، عن موظفٍ يسكن الدور السابع، ونزل ذات يومٍ متوجهًا إلى عمله، واكتشف أنه نسي ساعته ومنديله، فنادى على زوجته من الشارع ليطلب منها أن تُلقي له ما نسيه، ألقت الزوجةُ السَّاعةَ من الشرفة، فوصلت الأرض محطمةً تمامًا، صرخ الرجل في زوجته قائلًا لها: "حاسبي على المنديل".

لم يكـن أبي رجلًا من معتادي إلقاء النـكات، كان يحفظ بضع نكاتٍ، على درجاتٍ متفاوتةٍ من السماجة، ونكتة الساعة والمنديل كانت من أوائل ما سـمعته منها، مع مرور السنين، زالت سماجة النكتة، وبدأتُ أرى فيها

شـيئا أكثر عمقًا من كون الهدف إطلاق ضحكاتٍ عنيفةٍ على نكتةٍ قويةٍ. في مرحلة شـبابي الأولى كانت عبارة "حاسـبي على المنديل" تحكم الكثير من أفعالي، أقوم بإنفاق نقودٍ كثيرةٍ على أشـياء تافهةٍ، ثم أتوقف أمام أحد الأشياء الرخيصة نسبيًّا، وأرفض شراءها بحجة التوفير، بالتدريج صارت "حاسبي على المنديل" طريقة حياة؛ جرى التركيز فيها على كلّ ما هو ثانوي.. أنفقتُ الكثير على أشـياء تافهةٍ، وأضعتُ أوقاتًا كثيرةً على أشياء لا معنى لها، أشخاص، سـهرات، رحلات، أعمال، وتشددتُ كثيرًا في أشياء كان يمكن إذا فعلتها أن تتغير حياتي.

مع تقدمي في العمر تبدلت صورة أبي، وبدا أن نكتته السـمجة أقرب لنبوءة رجلٍ حكيـمٍ، بعيد النظر، انكشفت له تفاصيل شخوص أولاده منـذ كانـوا أطفـالًا بين يديه، وعرف مبكرًا مصائرهم، وسـعيهم المضني وراء أشياء تافهة.. ربما

لـمَّا رأيت النظارة تسـقط سريعًا في مجـرى الماء الهائج، ويتبعها المنديل الأبيض ببطءٍ، انتابني خوفٌ شديدٌ، غامت تفاصيل العالم، ولم أعرف كيف سـأعود إلى المنزل، انسـحبت فكرة الانتحار سريعًا، اسـتندت على سور الكوبـري العالي، التقطت أنفاسي، وتذكـرت أني أمتلك نظَّارةً احتياطيةً في البيت، فهدأت قليلًا.

يقينٌ

كنتُ أعرف أنها ستأتي، حتَّى من قبل أن أراها. أصلًا رأيتها مرةً واحدةً، وسمعتُ عنها حكاياتٍ كثيرةً.. تزوجتْ ضابطًا شابًّا وهي في التاسعة عشر، وقتل في مواجهاتٍ مع المتمردين بعد زواجهما بست سنواتٍ، ليتركها أرملةً في الخامسة والعشرين وبصحبة طفلين، وسمعتُ أيضًا أنها مطلقةٌ، أجبرها أهلها على ترك الجامعة ليزوجوها برجلٍ يكبرها بخمسةٍ وعشرين عامًا، كان يضربها قبل كل مضاجعةٍ، وأحيانًا كثيرةً بعدها لكثرة دموعها ساعة المضاجعة، أنجبت منه بنتًا، وهربت من البيت، وهددت أهلها إن لم يطلقوها فستقتل نفسها. وقيل إنها هربتْ من منزل أهلها وهي في عامها

الثاني في الجامعة وتزوجت زميلًا لها يكبرها بعامين، وتركت المدينة الصغيرة وانتقلت معه إلى العاصمة، وبعدها اكتشفت علاقات زوجها بأخرياتٍ فطلقها، ورفضت العودة مرةً أخرى لبيت أهلها، الذين أخبروها من قبل أنها ميتةٌ بالنسبة لهم.

كانت الحكايات كثيرةً، وكنتُ أعرف أني لو رغبتُ لسمعتُ حكاياتٍ أكثر، لكني كنت متعبًا، كنت فقط أريد النوم.

استيقظتُ في منزل أمي، كان شكل المنزل غريبًا، لا آتي كثيرًا.. أعرف، ولكن كل شيءٍ يبدو غريبًا، أحسست أن هذا لا يشبه بيتنا، ولكنه يشبه أكثر بيت جارة جدي العجوز، ولم أذهب إلى هذا البيت منذ كنت طفلًا، وماتت الجارة قبل جدي بعدة سنواتٍ، ومات هو أيضًا قبل سنواتٍ عديدةٍ.

كنا في الدور الأرضي، وكان بالغرفة شبَّاكٌ يطل على الشارع، وتحت الشبَّاك سريرٌ، كنتُ نائمًا عليه، وبجوار السرير كانت أمي تجلس صامتةً على الأرض، وقد ارتدت ملابس ريفيةً سوداء لم أرها بها من قبلُ. ثم دخلت هي، كانت ترتدي فستان سهرةٍ أسود وبلا أكمام، يعلو ركبتيها، وجوارب حريريةً شفافةً وسوداء أيضًا، كانت بيضاء وشَعرها قصيرًا.

استلقت على السرير بجواري، وتكورت على نفْسها، في اتجاهي، رأيت أصابع قدميها المختفية تحت جوربها الأسود الطويل وهي تحتك بقدمي كأنها تطلب الدِّفء، كان ملمس قدميها لطيفًا، مدغدغًا، وظهرها الذي يلتصق بي أصابني بالإثارة والارتباك، لم أعرف ماذا أفعل، هل أحتضنها،

أم أتركها تواصل احتكاكها بي، وكانت أمي ما زالت جالسةً بجوار السرير في ملابسها الريفية وتواصل الصمت.

مهمَّة عملٍ

في النهاية، تم تكليفي بالمهمة. حاولت التملص كثيرًا من الذهاب، لكن الحجة كانت واضحـةً مباشرةً، ولا يمكنني إنكارها، فالمكان هو مدينتي القديمـة، وأنا الوحيد في فريق العمل الذي يعرف المكان، حاولتُ إخبار مديري أني لم أذهب هناك منذ زمنٍ بعيدٍ، وأن إحداثيات المكان قد شابها الكثـير من التغير الذي يجعلني عديم الفائدة في المهمة، وأي زميلٍ يمكنه القيام بالعمل بغض النظر عن معرفته المسبقة بالمكان، لكنه رفض، فكان لا بدَّ من الذهاب.

كانت المهمة سـخيفةً، فلا بدَّ لي من مرافقـة مندوبةٍ من الإدارة العليا

للمؤسسة؛ لمتابعة الإنشاءات التي يقيمها الفرع الذي أعمل به في مدينتي القديمة، مشروعٌ بدأ منذ زمنٍ طويلٍ ولم ينتهِ، توقَّف مراتٍ عديدةً، وعاودوا العمل به مراتٍ، أثار انتباهي ـ وقت تم الإعلان عنه ـ أن هناك مَن فكَّر في الاستثمار في تلك البقعة، ولكن ساعتها أبعدتُ نفسي تمامًا عن الأمر؛ كي لا يتم توريطي في الذهاب إلى هناك، كنت قد توقفتُ عن زيارة المدينة، بعد أن رحلنا عنها جميعًا، ما يزال لنا بيتٌ هناك، لكن توقفنا جميعًا عن الذهاب.

قمت بمهامٍ شبيهةٍ من قبل. مرافقة مندوب الإدارة العليا، لا تعني شيئًا، فقط الكثير من عبارات الاحترام والمجاملة المتبادلة، وترديد نفْس العبارات تقريبًا مرةً بصيغة السؤال، ثم بصيغة الإجابة مع إضافة فعلٍ مستقبليٍّ يُطمئن مندوب الإدارة العليا أن ما يسأل عنه، يجري العمل فيه، أو التخطيط له، أو قارب على الانتهاء، وهكذا ينتهي كلٌّ منَّا من تقاريره المتشابهة، ويرسلها إلى الجهة المطلوبة، وينتهي الأمر، حتى يحين موعد الزيارة التالية.

في البداية كنت أتحمس لمثل هذه المهام، وكنت أقدم عروضًا وافيةً وأمينةً عن سير العمل، والصعوبات التي تواجه المشروع، وكيف يمكننا التغلب عليها، ولكني اكتشفتُ مع تتابع المهام، ومع توبيخات مديري المباشر المتكررة أن كل ما أفعله يعرقل العمل أكثر ممَّا يفيده، فوجود صعوباتٍ بالنسبة لإدارة المؤسسة، يعني أن فرعنا لا يقوم بعمله، وبالتالي فالمزيد من

التدقيق والمتابعة، وأيضًا اكتشاف الأخطاء التي ستعود علينا جميعًا بتوجيه اللوم، ومرةً كادت تودي بأحد الزملاء الأغبياء، كما وصفه ساعتها مديري، للفصل من العمل.

بعدها عرفتُ حدودي جيدًا، وبالغتُ أيضًا في تقليص مساحتها، لم أكن أهتم بالنجاح، ولا أيضًا بترك عملي، فقط كنت أنفذ ما هو مطلوبٌ مني دون أي محاولةٍ للزيادة. صار طموحي الوظيفي ألَّا يلحظني أحدٌ، وقد نجحتُ في هذا لفترةٍ طويلةٍ، حتى بدأتُ أنسى لماذا أنا هنا. كان الذهاب للعمل والبقاء في حجرتي والعودة مرةً أخرى للبيت، يشبه إحدى المهام البيولوجية للجسم، التي يقوم بها الواحد ولا ينتبه لها كثيرًا.

فهمتُ من ترتيبات المهمة، أننا سنستقل نفس القطار المتجه إلى مدينتي القديمة، مع اختلاف الدرجة، لا يهم، هكذا أفضل، فلا أريد أن أقضي ساعات السفر في تبادل عباراتٍ لا معنى لها، وأيضًا نسيتُ طريقة ترديدها.

عرفتُ من مديري أيضًا أن المندوبة شابةٌ، كان يحاول أن يصف لي شكلها كي يسهل عليَّ التعرف عليها، لم أنتبه لباقي ما قاله، لقد توقفت عند كونها شابةً، فهذا يعني بشكلٍ ما أنها حمقاء، غالبًا ستتحدث عن طريقة تفكيرها المختلفة، وعن رغبتها في التغيير، وعن محاولاتها لإكساب المؤسسة طاقةً جديدةً، ولهذا فهي حمقاء. فالشباب عادةً أحمق، ولكنهم لا يدركون ذلك، يدركونه فقط عندما يعبرون مرحلة الشباب ويشاهدون شبابًا آخرين. تمنيت أن تنقضي المهمة سريعًا؛ كي أعود إلى جحري مرةً أخرى.

وقفتُ بين عربتيّ القطار أدخن، تاركًا نفسي لهزات القطار ليموج شكل الدخان المنبعث مني. من العربة الأمامية، جاءت شابةٌ سمراء، ليس هكذا بالضبط، إن أردتُ أن أكون دقيقًا، كانت في لون الشيكولاتة، وشَعرها طويلٌ مموجٌ، كانت شابةً حلوةً. وقفتْ أمامي بين عربتي القطار، وقالت كلامًا لم أسمع منه شيئًا بسبب الضجة، ولكن سمعتُ كلمة المؤسسة تتردد، ما آثار انتباهي، طريقة وضعها لطلاء شفتيها، كان متركزًا فقط في منتصف شفتيها العليا والسفلية، كأنها كانت تحاول رسم شفتين أصغر من شفتيها الحقيقيتين، خلال تلك الجمل القصيرة السريعة التي قالتها، غالبًا كان على وجهي ابتسامةٌ مرتبكةٌ، وأظنَّ أني كنت أنظر فقط إلى شفتيها وطريقة طلائها، قبل أن تنصرف رفعت وجهها إليَّ، وقبلتني سريعًا على شفتي وانصرفت بهدوءٍ.

لم أدرك ما فعلتْ، عدتُ إلى مقعدي، وأنا أتحسس شفتيَّ، وأنظر لأصابعي لأرى إن كان هناك بقايا من طلاء شفتيها قد بقي على فمي.

لم أتعرض لمثل هذه المواقف منذ زمنٍ طويلٍ، ولم أكن أسعى إليها أيضًا، لم أفهم كيف يمكن أن أتصرف خلال ساعات المهمة، لعنتُ مديري مرةً أخرى، والظروف التي وضعتني في القطار، لأداء مهمةٍ سخيفةٍ لن تفيد أحدًا.

وصل القطار إلى وجهته، تعارفنا على بعضنا البعض بشكلٍ رسميٍّ، أخبرتني بتفاصيل معينةٍ تود الاطلاع عليها، وأخرى تود مشاهدتها، اتفقنا

على اللقاء بعد ساعتين، تمشيتُ معها قليلًا، ثم تركتها أمام باب الفندق الذي ستقيم فيه، وأخبرتها بضرورة انصرافي لأداء بعض المهام الضرورية قبل لقائنا، لم ألحظ عليها أي سلوكٍ يشير لقبلة القطار السريعة، فبدأت أشكُّ إن كانت بالفعل قُبلةً، أم أني قد نسيتُ كيف يتعامل البشر مع بعضهم البعض، وبدأت أفسر الأشياء بشكلٍ خاطئٍ.

لم يكن لديَّ مهامٌ لأنجزها، ولكني لم أكن أريد أن أبقى معها، لا أريد أن أبقى مع أي أحدٍ، فقط أريد أن ينتهي هذا كله، وأعود إلى حياتي العادية الهادئة، بلا مهامٍ، بلا إداراتٍ عُليا، ولا قُبَلٍ من شفاهٍ مطليةٍ بشكلٍ غريبٍ.

أخذتُ أتجول قرب بيتنا القديم، تركت نفسي أكتشف ما بقي مما كنت أعرفه، وهل يمكنني أن أصل بسهولةٍ إلى البيت القديم. لم تنفجر المدينة، في زياراتي الأخيرة قبل الانقطاع كنتُ أشعر أن المدينة في طريقها للانهيار وللزوال، كانت هيستريا البناء تجتاح المكان، عمارات وأبنية ضخمة في كل شارع، وكأحمق كنت أظن أن المدينة لن تحتمل كل هذا وستقضي عليه، بحربٍ أهليةٍ، بزلزالٍ كبيرٍ، بموجةٍ عاتيةٍ تزيل كل ذلك، لكن لم يحدث شيءٌ. في أوقاتٍ ما، غالبًا حال يكون الواحد شابًّا، يتصور أن العالم إمَّا أن يسير كما يرى، وإمَّا سينهار العالم ويزول، ولكن مع الوقت ينهار الواحد ويزول، ويبقى العالم يخرج من هيستريا إلى أخرى بسلاسةٍ مطلقةٍ.

أتذكر أشياء، وأظن أنها من الممكن أن تدلني على الطريق الصحيح، أتبعها، لكني لا أصل لشيءٍ، أحيانًا تتكرَّر العلامات، كما لو أنها تستنسخ

نفسها، أو بناة المدينة الجدد يستنسخونها من أجل الإيقاع بأمثالي العائدين فجأةً ليبحثوا عن أشياء تركوها منذُ زمن ولم يعودوا ليبحثوا عنها، فقرروا إيقاعهم في لعبة تذكرٍ لا تقود إلا للتيه والإحساس القاتم بالغربة.

أشعر أني هزلتُ، وأريد التبول، مر عليَّ زمنٌ كنت أهتم بوزني وزيادته ونقصانه، لكن مر كل هذا. الآن ومع إحساسي بالتعب أشعر كما لو كانت ثيابي قد اتسعت بشدةٍ، وبنطالي على وشك السقوط، أُسرع في مشيتي من أجل اللحاق بموعدي، لا بدَّ لي أن أعبر قضبان السكة الحديدية، لكن عند نقطة العبور كان هناك شِجارٌ يبدو كبيرًا، صياحٌ وشتائم وحجارةٌ تطير، أحاول الابتعاد عن تلك النقطة والعبور من مكانٍ آخر، لكن الصراخ يتواصل، ورجالٌ يجرون حاملين عصيًّا وسكاكين طويلةً وبنادق أيضًا، ويطلقون السباب على رجال آخرين على الناحية الأخرى من شريط القطار، الحجارة لا تتوقف، وأيضًا الزجاجات المشتعلة، ورغبتي في التبول تزداد، حاولت الاختباء في أحد الأركان والتبول، لكن تطاير الطوب يجعل كل الأركان معرضةً لحجرٍ طائشٍ، ولا أريد أن أُصاب وأنا أتبول، بنطالي يزداد سعةً، المفترض الآن أن المندوبة التي في لون الشيكولاتة تقف أمام الفندق في انتظاري، والشِّجار لا يتوقف، ويبدو أن رقعته تتسع، وفي الأغلب لو رآها هؤلاء الرجال المهتاجون، سيأكلونها حرفيًّا، لا يهم، ما يهم أن أتوقف عن الهزال، وأن أتبول، لو استمر الوضع هكذا سأنتهي كبقعة بولٍ على جدارٍ في مدينتي القديمة التي لم أرها منذ زمنٍ طويلٍ.

أعمالٌ حكوميةٌ

أحكمتُ ربط حذائي، الآن تقريبًا أنا جاهزٌ، أحمل نقودًا، وكل الأوراق الرسمية اللازمة، وضعتُ السماعات في أذنيّ، قطعةٌ موسيقيةٌ صاخبةٌ، تبدو مناسبةً ليـوم كهذا، وجدتها بالأمس بالصدفة قبل عودتي، ضبطتها لتتكرَّر بمجرد انتهائها، عادةً عندما تلفت انتباهي قطعةٌ موسيقيةٌ ما، اتركها تتكرر في أذني على مدار يوم أو أكثر، وغالبًا أنساها في الأيام التالية، إلى أن أستيقظ ذات يوم وأسمعها تتردَّد في رأسي، وساعتها عادةً لا أنجح على الإطلاق في الوصول إليها مرةً أخرى.

الشمس بيضاء، ثمة أيامٌ تُلقي فيها الشمس أشعةً بيضاء حارقةً، تتحوَّل

فيها شوارع المدينة إلى جحيمٍ أبيض، تبدو فيه كل الأشياء وكأنها على وشك الانصهار، لكن لا يحدث شيءٌ، فقط يسير الناس كالسحالي تحت هذه النار البيضاء المنصبة من الشمس، ولا يحدث شيءٌ.

أسيرُ مسرعًا ولكن بهدوءٍ، لا أريد أن يفسد أي شيءٍ عليَّ هدوئي، لا بدَّ أن أنجز مهمتي وأنا هادئٌ، لو انفعلتُ ولو قليلًا، سيضيع كل شيءٍ، اليوم أنا ذاهب إلى قلب الدولة، أو بشكلٍ أكثر دقةً أحد قلوب الدولة، فالدولة لها قلوبٌ كثيرةٌ لا تأبه لأحدٍ، يذهبُ المئات أو الألوف لا أدري، ولكن يذهب كل يومٍ ناسٌ كثيرون لأحد هذه القلوب، يتم اعتصارهم بالداخل، وربما يستطيع البعض الحصول على بغيته، وغالبًا لا يستطيع الكثيرون، لكن يخرج الجميع كبواقي الفاكهة التي تم عصرها، العصير المستخلص يجعل قلوب الدولة تعمل بكفاءةٍ كي تعتصر أفواج القادمين غدًا، والفضلات تعود لتسير في الشوارع على أمل أن تنجح في يومٍ آخر.

أنا في طريقي لقلبٍ قديمٍ من قلوب الدولة، أريد تغيير اسم ابني. أبي كان يمتلك مهارةً في التعامل مع موظفي الدولة على اختلاف درجاتهم، كان يعرف كيف يحترم مَن هُم أعلى ويحتقر مَن هُم أدنى، تلك المهارة مكَّنته من أن يختار لنفسه اسمًا رشيقًا من وسط أسماء أسلافه السابقين، وساعدته أيضًا أن يختار لنا أسماء شبيهةً ـ ليست على نفس القدر من الرشاقة، ولكن لا بأس ـ بينما أنا لم أمتلكْ شيئًا من تلك المهارة، لذا جاء اسم ابني طويلًا مملًّا، وبالتأكيد سيصيبه بالمتاعب فيما بعد.

وكـي أُخفِّـف من لعناته التي ستسـقط عليَّ يومًا ما، قـررتُ أن أقوم بالمحاولة منذ الآن، متسلحًا بكل ما أملكه من هدوءٍ، ووجهٍ جامدٍ، وقطعةٍ موسـيقيةٍ صاخبـةٍ تحميني ممَّا يحدث خارجي، وأوراقٍ رسـميةٍ أرجو أن تسند مبرراتي.

السحالي تواصل الحركة تحت الشمس البيضاء، وداخل أنفاق القطار، اخترتُ أن أذهب للقلب بالقطار، أيام إنجاز المهام لا تحتمل الحركة بالحافلات، خاصةً إذا كانت الشمس بيضاء، أُثبِّتُ نظري على النافذة، لا أريد أن أدخل في أي اتصالٍ مع السـحالي المتحركة من حـولي، يكفي احتكاكهم بي من حينٍ لآخر، ألاحظ أحيانًا أن عيون البعض تنتفخ أثناء التحديق بي، كأنها على وشك الانفجار، اعتدتُ هذا الأمر، ثمة أيامٌ يكون فيها لأهل المدينة عيون منتفخةٌ كرقاب الضفادع على وشك الانفجار من كثرة التحديق في بعضهم البعض.

عليَّ تبديل ثلاثة قطاراتٍ لمسـافاتٍ متفاوتة الطول، أركز في المحطات التي يجـب أن أغير فيها القطارات، أحاول دائـمًا ألَّا أحتك بالضفادع أو السـحالي التي تتقافز من حولي، أخرج من المحطة الأخيرة، وأتجه للمبنى الضخم.

في الطابـور الطويل أضع عينيَّ في كتابٍ دعائـيٍّ عن قادة هذا القلب العتيد، وجدتُ نسخةً عند باب الدخول، لم أكن أقرأ شيئًا، ولم يكن هناك ما يسـتحق القـراءة، كان الكتاب فقط من أجل أن أُخبِّـئَ عينيّ، أرفعها

بهدوءٍ من حين لآخر لأرى الموظف الشبيه بالقنفذ، وهو يرفع رأسه ببطءٍ ليستمع إلى الواقف أمامه للحظاتٍ، ثم يخفضها ببطءٍ لترتفع أشواكه في وجه الواقف أمامه.

الموسيقى ما زالت تتدفق في رأسي، أراجع في رأسي المبررات التي سأسوقها للقنفذ كي يستجيب لطلبي، وأكرر الاسم المختار؛ كي ألفظه بطريقةٍ صحيحةٍ واضحةٍ وسريعةٍ.

وصلتُ أمام القنفذ، رفع رأسه، نظر إليَّ بعين ضيقة نصف مفتوحة، وأخذ رأسه في الهبوط، وأشواكه في الارتفاع، من طرف الصالة الواسعة التي نتكدس فيها، بدأت ضجة عراكٍ بين ضفدعٍ وسحليةٍ، أخذ صوتي يعلو بالتناسب مع ارتفاع ضجة الشجار، تلوت مبرراتي واحدًا تلو الآخر، وأنا أشك في استيقاظ القنفذ بالأساس، لكنه بدأ يهز رأسه ببطءٍ، لم أفهم إن كان ذلك يعني أنه يتابع ما أقوله، أم أنه اكتفى من المبررات، وصلت الضجة حدًّا كنتُ أصرخ فيه بالاسم المختار لابني وأنا لا أكاد أسمع نفسي، والقنفذ يواصل هز رأسه، ثم أشار إليَّ بيده أن أبتعد، حاولت أن أسأله إن كان استمع إلى الاسم بشكلٍ دقيقٍ أم لا، لكن رؤية باقي الطابور لإشارة يده لي بأن أبتعد، دفعت الجميع خلفي إلى الصراخ فيَّ أن أرحل، وأحسستُ بأيدٍ في ظهري تلكزني كي أبتعد، ألقيتُ الأوراق الرسمية التي أحضرتها كي أبرر بها طلبي أمام القنفذ، وخرجت من الطابور، انسحبتُ من الصالة، ثم من المبنى الضخم، ولا أعرف إن كان القنفذ قد فهم

ما أطلبه أم لا؟ وهل استمع إلى الاسم بشكلٍ دقيقٍ أم لا؟

عاودت وضع السماعات في أذنيّ، وأخذت الطريق بشكلٍ عكسيٍّ، ماذا لو خرجت النتيجة باسمٍ جديدٍ لابني، اسم لا يمت لي أو لاسم أبي بصلةٍ، هل سيُضيع هذا القنفذ بنوة ابني وأبوتي، سيصبح ابني شخصًا آخر، وأنا أيضًا سأصبح شخصًا آخر، ولن يبقى ثابتًا إلا القنفذ في كرسيه وضجة العراك تحيط به.

الشمس بيضاء، وهذا التمثال لم يكن هكذا، وأنا لا يجب أن أكون في هذا الميدان الآن، يجب أن أكون تحت الأرض في قطارٍ يجري ممتلئًا بالسحالي والضفادع. أجلْ لم يكن التمثال هكذا، أعرف أنه لقائدٍ عسكريٍّ ابن قائدٍ عسكريٍّ آخر، تحت الشمس البيضاء أرى تمثالًا لجرادةٍ رشيقةٍ يمتطيها ضفدعٌ سمينٌ، ويبدو أن الضفدع لكز بطن الجرادة، لوهلةٍ أحسست أن بطنها يهتز، وأجنحتها ترتعش، والضفدع السمين يشير إلى أكوام السحالي التي تجري في الطريق أمامه، وبدأت الجرادة في الطيران.

يـومٌ طويـلٌ

اليوم الريـاح تهاجم المدينة، تغلفها بالـتراب، تجعل كل شيءٍ أصفر. كنـتُ ماشـيًا في الجزء القديم مـن المدينة، هنا كانت جامعتـي، لم آتِ إلى تلك الشـوارع الضيقة منذ زمنٍ، ولكني وجدتُ نفسي هنا اليوم، أجلس في المقهى الفقير لأشرب شيئًا، كنا نجلس هنا أيام الدراسة كثيرًا، لم يتغير المكان، المقهى ما يزال بائسًا، يبدو من الصور المعلقة على الحائط، والمفارش البلاستيكية الرخيصة أنه كانت هناك محاولةٌ لتجديده، ولكنها زادت المكان بؤسًا.

أصوات ضجةٍ وضحكاتٌ قادمةٌ، تقترب مجموعةٌ من الرجال والنساء

مختلفي الأعمار، وهم يتضاحكون، يبدون كمجموعةٍ من الغجر يقدمون عروضًا بهلوانيةً، ويقومون بإلقاء النكات في الشـارع، كانت بعض نساء المجموعة ترمق الرجال المتفرجين بنظراتٍ شهوانيةٍ.

لم أفهم لماذا اقتربت مني الشرموطة، كانت ترتدي مثلهم جينزًا، وتيشرتًا ضيقًا كثير الألوان، وعلى شفتيها بقايا طلاء شفاهٍ بنفسجيٍّ، لحظة اقترابها لم أجد كلمةً تصلح لوصفها سوى الشرموطة، فصارت هكذا.

كانت تبتسـم، وتتراقص، وتدور حولي، وفجأةً ألصقت بطنها ببطني للحظةٍ، وأنا واقفٌ مرتبكٌ لا أدري كيف أتصرف، ولاحظت دائرة المتفرجين الموقف، فبدأ البعض في الابتسـام والتهامس، وقام البعض الآخر بإلقاء تعليقاتٍ سـاخرةٍ حول الشرموطة التي لا تسـتطيع السيطرة على نفسها. ساعتها تذكر القهوجي بطريقةٍ ما أو بأخرى أني أحد زبائن المقهى القُدامى. هكذا صرت معروفًا ولم أكد أفتح فمي، أو أتحرك من مكاني.

***

بعدها كنت في طرف المدينة، وقابلت سارة زميلتنا الإفريقية السوداء في المؤسسة، بدت غريبةً، فسارة الممتلئة عادةً ما ترتدي ملابس حديثةً، وتترك شَعرها المجعد بلا نظامٍ، لكنها كانت ترتدي عباءةً سوداء من النوع المنتشر في الأحياء الشعبية، وتضع على رأسها طرحةً، سلمتُ عليها، وسألتها عمَّا

تفعله هنا، فأجابتني أنها ذاهبةٌ لمولد سيدي حسن الصيَّاد، اندهشتُ، لم أسمع عن مولدٍ في تلك المنطقة من قبل، كما أني أيضًا لا أعرف وليًّا أو ضريحًا باسم حسن الصياد.

سألتني سارة إن كنت أرغب في الذهاب معها، قلت لنفسي لمَ لا، فرصةٌ كي أتعرف على المولد المجهول بالنسبة لي، جذبتني سارة من يدي ومشينا في شوارع فقيرةٍ ضيقةٍ، كنت أظن أني أعرف المنطقة جيدًا، لكن الشوارع التي أخذتني إليها سارة كانت غريبةً بالنسبة لي، ظلت الشوارع تضيق، واقتربت حوائط البيوت بشكلٍ يصنع شوارع زجزاجيةً غريبةً، كنت أعبرها خلف سارة ملتصقًا بالحائط كي أتمكن من المرور.

وصلنا إلى ساحةٍ صغيرةٍ، تمتلئُ بأناسٍ فقراء، يرتدون أسمالًا، وتعلو وجوههم الشراسة، كانوا يتحدثون عن الأحداث السياسية الأخيرة في البلاد بانفعالٍ، لا أعرف لماذا بدأت الأنظار تتجه نحوي، وسألني أحدهم عن رأيي فيما يجري في البلاد، ساعتها لم أجد سارة بجواري، بحثت عنها بعيني لكنها كانت قد اختفت وتركتني وحيدًا أواجه السؤال، كنتُ خائفًا من الإجابة، مرعوبًا أن تستفزَّ الناس إجابتي إذا جاءت عكس توقعاتهم، ولما طالت فترة صمتي، بدأت الأنظار تتجه نحوي تنتظر سماع كلماتي، وبدأ البعض يسأل البعض الآخر لماذا تأخرت في الإجابة، وهل لديَّ شيءٌ لأخفيه، وما الذي أتي بي بالأساس إلى هنا ولستُ من أهل المنطقة. ربما كنتُ جاسوسًا، مخربًا، إرهابيًّا.. بدأت الصيحات تتعالى، وكان الخوف

يشبه فقاعةً هوائيةً كبيرةً تتضخم في صدري وتمنعني من الكلام، ولعنتُ سارة.

***

وصلتُ عند مدخل العمارة التي أسكن بها، كان المدخل رخاميًّا لامعًا، لا أعـرف هل كان المدخل رخاميًّا عندما غـادرت المنزل؟ وكيف حافظ الرخام على كل ذلك اللمعان وسط التراب الذي يعبث في المدينة، وقفتُ أدخنُ سيجارةً، وفجأةً وجدت الشرموطة تعبر الشارع متجهةً نحوي وهي تبتسم، ارتبكتُ، وجدتُ نفسي مدفوعًا لقول شيءٍ لها، كنتُ أريد استثارتها كما فعلتْ هي صباحًا في ركن المدينة القديم، عندما اقتربتْ وجدت نفسي أقول لها: "وانتي بقى بتعرفي تمصي؟"، انقلبت سحنتها المبتسمة، وتفاجأتْ كما لو أن لطمةً غير متوقعةٍ أصابتها، ثم تحوَّل وجهها إلى العدائية، وضيَّقتْ عينيها وهي تنظر إليَّ تريد أن تقتص لنفسها مني، وعبرتني وهي تتوعدني بكلماتٍ لم أستطع تبينها من الصدمة.

لا أعرف لماذا خاطبتُ الشرموطة بهذه الغشامة، عادةً لا أستعمل مثل هذه التعبيرات، وحتى أوقات انفعالي لا أستخدم شتائم بذيئةً، ولا حتى أحب الجنس الممزوج بشتائم جنسيةٍ، لكنَّ رغبتي في إثبات وجودي أمام الشرموطة، في تحديها، والظهور أمامها كداعرٍ مرحٍ، هي ما دفعت عبارتي إلى الخروج والاندلاق على وجهها، سرتُ مرتبكًا، لا أعرف ما الذي ينبغي

أن أفعله على وجه التحديد، بالتأكيد سأراها مرةً أخرى، فكيف يمكن أن أتصرف ساعتها، وماذا عن تهديدها بالانتقام، ونظرتها المتوعدة، في النهاية حتى لو كانت المدينة كبيرةً، سيمكنها الوصول إليَّ، وأنا لا أعرف أساليب الشرامیط، ولا أظن أنه يمكنني التعامل معها. وزوجتي؟ هل سأخبرها بما حدث؟ أم لا؟ وماذا لو التقيتها أثناء دوراني المستمر مع زوجتي في المدينة، وكيف يمكن أن أبرر لها ما حدث؟ هل أردتُ أن أفعل شيئًا مع الشرموطة حقًّا؟ لا أظن.. فأنا عادةً لا أحب تلك العلاقات السريعة العابثة؛ إذ تسبب من وجع الرأس أضعاف ما تسببه من متعةٍ. أحيانًا أفكر فيها، وأحيانًا أترك نفسي مستسلمًا أمام إغراء صديقةٍ قديمةٍ، أو ضيفةٍ في المؤتمرات الكثيرة التي تنظمها المؤسسة، لكن حتى نقطةٍ معينةٍ. تتيح لي الاستمتاع بكوني مرغوبًا لا أكثر، وبعد ذلك أنسحب. إذنْ لم يكن الهدف هو القيام بمغامرةٍ جنسيةٍ، بقدر ما كان هدفي ألَّا أبدو أمام الشرموطة مرتبكًا هكذا كمراهقٍ صغيرٍ.. هكذا حدثتني نفسي.

ماشيًا كانت تختلط الأفكار في رأسي، ولاحظتُ امرأةً أجنبيةً في منتصف عقدها الرابع على الأرجح تمشي على مقربةٍ مني مع ابنتها التي في الثانية أو الثالثة عشرة على أكثر تقديرٍ، واخترقت أذني عبارةٌ قالتها الأم لابنتها: قال تولستوي يا ابنتي "المحمديون هم أبناء الجوارب القذرة".

انتزعتني العبارة من خليط تساؤلاتي الداخلية، لم أعرف أن تولستوي قال مثل هذا الكلام، بل ما أعرفه ربما كان العكس، فهناك مراسلاتٌ طويلةٌ بين الكاتب الروسي العجوز وأحد علماء المسلمين الكبار، كما أن وصف

"المحمديين" يبدو قادمًا من حملةٍ صليبيةٍ في العصور الوسطى، ولا أظن أن تولستوي استعمله، والمرأة لا تبدو عتيقةً على هذا النحو، فهي امرأةٌ حديثةٌ من مظهرها وشكل ملابسها، كما أنها بشكلٍ ما من الأشكال لا تزال جميلةً، جملتها فجَّرت لديَّ الرغبة في معابثتها، اقتربت منهما على وجهي ابتسامةٌ مرحةٌ، وقلت للمرأة: "ولكن ألم يقل تولستوي كيف يمكن للجوارب القذرة أن تتزواج؟"، اندهشت المرأة في البداية لاقتحامي الحديث، لكنها ابتسمت، وارتبكت قليلًا وقالت: "لا أدري.. هكذا قرأتُ، وكنت أتحدثُ مع ابنتي قليلًا عن تاريخ المنطقة".

يبدو أن المرأة تحتاج للتحدث إلى أحدهم، كنا سائرين في نفس الاتجاه متجهين إلى البحر، لم أتحدث كثيرًا، فقط تلك الأسئلة البسيطة التي يمكن أن تدفع بعض الغرباء إلى رواية حياتهم بالكامل لأول أذنٍ يمكنها أن تستمع، كانت المرأة الأجنبية تعمل مهندسة إنشاءات في أحد المشاريع المعمارية الضخمة المنتشرة الآن في أنحاء المدينة، مطلقةً، وتأتي وحيدةً من بلدها البعيدة للعمل هنا؛ إذ إن الراتب الذي توفره الشركة العالمية التي تعمل بها لا يمكن أن تجده إذا ظلت في بلادها، والابنة تعيش مع جدتها هناك، ولما كانت إجازة المرأة قصيرةً تلك المرة، فقررت بدلًا من أن تسافر هي، أن تأتي بابنتها لترى المدينة التي تعمل بها أمها.

المشروع الذي تعمل به المرأة الأجنبية حاليًا، هو بناء مولٍ تجاريٍّ ضخمٍ على شاطئ البحر مباشرةً، ولا يزال المشروع في نهاية المرحلة الأولى حيث اقتربت الأساسات على الاكتمال.

بدا شـكل المنطقة غريبًا، لا أتذكرها هكـذا، ولا أظن أني تغيبت فترةً تسمح ببناء كل هذه الأساسات الضخمة. على الطرف المقابل يوجد الفندق الكبير الذي يحمل شـارة سلسـلة الفنادق العالمية، لكنه الآن يبدو ضئيلًا وقديمًا أمام تلك الأساسات التي يبدو أن وراءها شركةً أكثر ضخامةً من سلسلة الفنادق التي باتت قديمةً.

كانت الأعمدة الخراسانية الضخمة التي تغوص في مياه البحر، يربط بينها جسورٌ يفترض أنها ستتمدد لتصبح أرضية المكان فيما بعد، والأسقف لا تـزال تحت الإنشـاء، الأمر الذي جعل المنطقة تبـدو كما لو كانت غابةً إسـمنيةً وحشيةً، كثيرة التجاويف. مشـينا بحرصٍ فوق الجسور في اتجاه النقطـة التي تواجه البحر. كان المكان يعبق برائحةٍ جنسـيةٍ طاغيةٍ، وبين الأركان كانت هناك عملياتٌ جنسيةٌ محمومةٌ، لفت انتباهي شابٌّ يجلس منفرج الساقين، وقمصيه مفتوحٌ، وبين ساقيه فتاةٌ تدلك له عضوه، تعجبت أكثـر من التغـيرات التي حلت بالناس أكثر من المـكان، ولكني لم أُعلِّقْ، وأيضًـا لم تُعلِّق المرأة على ما يحدث في موقع عملهـا، وواصلت حديثها، والطفلة كانت تبدو في عالمٍ آخر.

وقفنا قريبًا حيـث يمكننا أن نرى البحر، كانت المرأة أمامي، والطفلة على بعد خطواتٍ، وجدتُ نفسي أحاول الالتصاق بالمرأة من الخلف، وهي لم تمانع، وعندما اسـتراح جسـدانا، وبدأت في الانحناء على رقبتها، ظهر القهوجي الذي تذكرني صباحًا في المقهى البائس، كان الرجل يبدو قادمًا

من أجلي، بلا مقدماتٍ قال لي: "شرطة مكافحة البغاء في طريقها للمكان، وهم يبحثون عنك.. من الأفضل لك أن تغادر المنطقة". انسحبت المرأة في منتصف جملة الرجل، واتجهت ناحية فتاتها، وبدأت في إكمال حديثها عن "المحمديين"، كأنما لم ينقطع وهي تمضي بها في اتجاهٍ معاكسٍ.

وجدتُ نفسي وحيدًا، فبدأتُ في الخروج من المنطقة، فكرت قليلًا في مسألة بحث الشرطة عني، أعرف أن الشرطة قويةٌ، ولكن لماذا تبحث عني، لم أرتكب شيئًا يجعلها تُلقي القبض عليَّ هكذا. ربما بدأت ألاعيب الشرموطة للانتقام مني، أوف.. كم كان الموقف سخيفًا، ولا أعرف الآن كيف يمكن أن تتسع أبعاده!

أثناء ابتعادي عن البحر لاحظت أن المنطقة تمتلئُ بالمشاريع التي ما تزال تحت الإنشاء، مثل مشروع المهندسة الأجنبية، فبدت المدينة غريبةً، كأنما تخلع ثوبًا قديمًا، ولكنها لم ترتدِ كامل الثوب الجديد بعد، أحسست أني في مكانٍ مُشوَّهٍ، ليس مؤهلًا بعد لسُكنى البشر.

***

ابتعدتُ عن المنطقة بمسافةٍ كافيةٍ، وبينما أحسب كم الشوارع التي تفصلني عن منطقة الشاطئ، وجدتُ سالم واقفًا أمام عمارتهم. هو الشقيق الأصغر لزميلةٍ سابقةٍ، لديها ثلاثُ شقيقاتٍ أخرياتٍ، يشبهنها تمامًا، يبدون صورةً

لنفس الشخص في مراحل عمريةٍ مختلفةٍ، بدا سالمٌ حزينًا وهو يحدثني عن الأسانسير الجديد الذي يرفض أهله أن يجعلوه يستخدمه، لم أكن صديقًا للزميلة السابقة ولا لأسرتها، لكن كانت تربطنا علاقةٌ طيبةٌ. وكنت أعرف من حكاياتٍ متناثرةٍ أنه طائشٌ ومتهورٌ، وهم يسكنون كما أذكر في الطابق التاسع، لكني لم أفهم سبب رفض أسرته لاستخدامه مصعد يُفترض أن يستعمله الجميع. وبينما كان يتحدث، جاءت أخته "صورة رقم 3" التي بدت كأنها زميلتي السابقة "صورة رقم 2" في شبابها، ابتسمت من بعيدٍ، واتجهت إلى قطعة خشبٍ مستطيلةٍ مربوطةٍ بحبالٍ تصعد لآخر العمارة، وبدأت في الصعود، كان الأسانسير الجديد يشبه سقالة بناءٍ بدائيةً قديمةً، وبينما كانت ابتسامة "الصورة رقم 3" لا تزال ملتصقةً على وجهها وهي تصعد، كان وجه سالم وهو يتابعها، يتألم كطفلٍ صغيرٍ حرموه من لعبته بلا سببٍ. تركته واقفًا ينظر بحزنٍ للأعلى، شكرته في سري لأنه أخذني من التفكير في الشرموطة قليلًا، وأكملت طريقي.

***

وجدتني قريبًا من المنتجع، فدخلت. المنتجع مكانٌ يُشبه حرف U على الشاطئ، حيث تدخل المياه بين ضلعي الحرف، على الضلع الذي اتجهت إليه كان هناك مجموعةٌ من الصحفيين والكتَّاب، أعرف بعضهم بالاسم، وتربطني بالبعض علاقاتٌ طفيفةٌ، يتوسطهم الصحفي السمين، أكبرهم

سنًّا، والذي بدأ يعرف طريقه للشهرة مؤخرًا، كانوا يتابعون شخصًا على الضلع الآخر ويتندرون عليه، كان هناك أيضًا علي وسلمى يجلسان على بعد عدَّة مقاعد، يحدقان في شاشات أجهزتهما المحمولة، اتجهت إليهما، وبعد السلام بدأت ألاحظ الشخص الذي يتابعه مجموعة الكتَّاب وعلى رأسهم الصحفي السمين، كانت تلك هي الكاتبة الشابة، قرأت لها بعض ما تكتبه، لا بأس بها، كانت تجلس وحيدةً، مقوسة الظهر أمام شاشة كومبيوتر، كنت أراها على البعد بيضاء، شديدة الشحوب، بدا وجهها عبوسًا، منعقد الحاجبين، وشَعرها المهوش جعلها أشبه بمدمني المخدرات الثقيلة، بدا لي منظرهم وهم يسخرون منها مبتذلًا وسخيفًا، سألت سلمى لماذا يفعلون معها هذا؟ فأجابتني وهي منشغلةٌ باللعبة التي تلعبها على الشاشة في يديها: "يسخرون منها؛ لأن صديقها هرب وتركها حاملا"، ازددتُ قربًا من المجموعة، فحولتُ نظري عنهم، وسألت سلمى عمَّ تفعله هذه الأيام، فأجابتني أنها تدرس اللغة الرومانية الآن؛ لأنها تخطط للانتقال إلى هناك، بث حديثها فيَّ حماسًا مفاجئًا، فعادةً أتحمس للمسافرين للأماكن غير المألوفة، بعد قليلٍ من الصمت، أحسستُ بسحابة تفاهةٍ ثقيلةٍ ترزح فوق المكان، فغادرتُ.

***

بدأتُ أشعر برغبةٍ طاغيةٍ في التبول، فجأةً هاجمني الإحساس بأن مثانتي

ستنفجر، ماشيًا ببطءٍ، خوفًا من انفجار بولي، دخلتُ إلى عمارةٍ كبيرةٍ، كان الدور الأول منها يحتله نادٍ خاصٌّ، لا يُسمح فيه بالدخول لغير الأعضاء، ربما يمكنني تدبر طريقةٍ للدخول، لكنه كان مغلقًا، وقفتُ أمام الباب حيرانًا وساقايَ مضمومتان، فوجدتُ علي واقفًا على السلم في الدور الذي يعلو النادي، ودعاني إلى بيته، تعجبت كيف استطاع الوصول سريعًا للمكان، ومتى انتقل إلى السكن هنا، لكني كنتُ أريد التبول، صعدتُ إلى شقته لأجد ثلاثةً من أصدقائه أمام باب الحمَّام تحرقهم أيضًا الرغبة في التبول، في انتظار الصديق الرابع الذي يتبول في الداخل، كانت غريبة تلك الحاجة الجماعية للتبول التي عصفت بالجميع، وجمعتهم بالصدفة في هذا المكان.

تبولتُ، فشعرتُ بالارتياح، ووجدتُ أنه من المحرج المغادرة بسرعةٍ بعد الخروج من الحمَّام، فقررتُ البقاء قليلًا مع علي، بينما غادر أصدقاؤه بعد تبولهم مباشرةً. كان الحديث لطيفًا، هادئًا، تقريبًا بلا معنى سوى إمضاء بعض الوقت، شكرت علي، وغادرتُ الشقة.

***

في طريق عودتي للبيت، كنت أشعر بالارتباك، كيف سأتصرف مع زوجتي الآن؟ هل أخبرها بما حدث مع الشرموطة أم لا؟ أكره هذا الارتباك، يجعلني لا أستطيع التنفس جيدًا، خائفًا، لا أعرف كيف أتصرف.

وصلتُ العمارة، كان المدخل ما يـزال رخاميًّا لامعًا، حاولت التذكر هل كان كذلك بالصباح، لكني لم أفلح، وجدت شقتي في الطابق الثامن، لا أعرف لماذا تصورتُ أنها كانت في الطابق السـادس عندما خرجتُ في الصباح. لماذا تبدو الأشياء على هذا القدر من الإرباك اليوم؟ دخلتُ من باب الشـقة، وجدت أُمَّ زوجتي جالسـةً على الكنبة وبين يدها إبر تريكو وبكرةٌ خيطٍ كبيرةٌ على حجرها تخيط شيئًا ما، متى وصلت تلك المرأة من مدينتهـا؟ ولماذا لم تخبرنا قبل قدومها؟ وما لهـا تبدو هادئةً هكذا على غير عادتها؟ لم يكن ينقص إلا قدوم حماتي.

بينما أضع مفاتيحي على المنضدة، دخلت زوجتي، بصحبتها زميلٌ لها في العمل، كما عرَّفتني به، وأخبرتني أنها دعته للبيت لتناول مشروبٍ بعد انتهاء حفل الكوكتيل الذي نظموه في عملها اليوم، نظرتُ إليها، كانت تبدو غريبةً، لم تكن ترتدي هكذا في الصباح، كان فستانها طويلًا حسبما أتذكر، لكنه يبدو كما لو أنه أصبح قصيرًا يصل إلى منتصف فخذيها السـمرواين الطريين، وانفتح صدر الفسـتان ليبدو نهداها المكتنزان على وشـك القفز خارجًا، كان وجهها محمرًّا، وشفتاها لامعتين، تبدو شهوانيةً.

أثارني منظرها وأصابني بالضيق، لماذا تبدو مثيرةً؟ وهل كانت ملابسها هكذا في الصباح؟ مَن هذا الزميل الذي دعته للمنزل الآن؟ ولماذا تنظر له بهذه الطريقة وهي تتابع حديثه باهتمامٍ؟ هل هناك شيءٌ بينهما؟ ولو كان بينهما شيءٌ ألا يجب أن تحرص على إخفائه قليلًا، والآن هل أخبرها بما حدث مع

الشرموطـة أم لا؟ أصابني الاختناق، وأردتُ أن أغادر، ووقعت عيناي عـلى أم زوجتي وهي تنظر إلينا مـن فوق نظّارتها صامتةً على غير عادتها، كأنها تنتظر أن يقع شيءٌ ما.

ترتيباتٌ للمشهد النهائي

لم يكن يومي لطيفًا بأي حالٍ، أخبرني رئيسي في العمل بأني فاشلٌ، هكذا ببساطةٍ أطلق الكلمة كرصاصةٍ كانت كفيلةً بأن تقضي على ما تبقى من اليوم، وبالتأكيد على أيامٍ أخرى قادمةٍ. هذا الحشرة يتهمني أنا بالفشل، بعد كل هذه السنوات يأتي لاحس المؤخرات هذا ليتهمني أنا بالفشل.

أعرف أنه يمكن اتهامي بالتقصير في العمل، ولكن ليس منه هو تحديدًا، وأنا لست مقصرًا، ببساطةٍ لقد توقفت عن الاهتمام بالعمل، أي عملٍ هذا الذي يتهمني بالفشل فيه؟! لقد عملتُ طويلًا من قبل، والآن لست مهتمًّا، بالكاد أنهي ما يجب عليَّ فعله، وأوزع باقي المهام على الزملاء المهتمين

بالعمل، هؤلاء السذج المهاويس، هم يريدون النجاح، أما أنا فلا أهتم.

أستقلُّ المترو كي أعود إلى البيت، ولكن ليس بي رغبةٌ في العودة، لا أريد الآن أن أستمع إلى ضجيج زوجتي والأطفال، ربما من الأفضل أن أبقى في المترو لبعض الوقت، أن أمضي معه حتى آخر الخط، ثم أعود مرةً أخرى، مراقبة الناس أمرٌ جيدٌ في مثل هذا المزاج، رؤية تلك الوجوه المتعبة، المرهقة، المتزينة، المتربة، الشابة، العجوزة، الفرحة، الحزينة، العابسة، المتكلمة، الساهمة، الغاضبة، البائسة، الصامتة تتيح للواحد إدراك أنه ليس وحده في هذا العالم، وأيضًا أنه يمكنه الاستغناء عن كل هذا العالم، فلا فائدة فيه، ويمكن للواحد في يومٍ مثل هذا أن يستمتع بتحطيم وجه رئيسه في العمل، كلا لا داعي لتحطيمه، فقط سأفرق وجهه على تلك الوجوه التي أمامي في المترو، وأتركه بلا وجهٍ، مجرد جسدٍ يسعى بلا وجهٍ، في واقع الأمر لا يمتلك هذا الأجوف وجهًا، وإنما فقط لسان لا يكف عن الحركة وإصدار الأصوات المزعجة، لذا سأفرق وجهه على راكبي المترو، وأترك له لسانًا فقط، جثةً متحركةً تمتلك بين كتفيها لسانًا ضخمًا. يكفيه اللسان لاحس المؤخرات هذا.

أجد مقعدًا، جميل، ظهر في اللحظة المناسبة، كي أشاهد الركاب دون أن أصطدم بأحدهم، ودون أيضًا الارتجاج مع توقف القطار في كل محطةٍ.

الجالس بجواري يحمل حزامًا ناسفًا، شاهدت هذا الشيء في الكثير من

نشرات الأخبار، والآن أُشاهد حامله يجلس إلى جواري، لم يكن ظاهرًا، ولكن تمكنتُ من رؤيته لما انفتح الجاكت الذي يرتديه قليلًا، هكذا إذنْ تأتي النهاية، مفتتًا ومحروقًا داخل تلك العلبة المعدنية الكبيرة التي تجري تحت الأرض الآن.

في الحقيقة.. طالما تساءلت عن سبب عدم تفجير المترو حتى الآن، وسط الصراع الذي تعيشه المدينة، فأيُّ منظمةٍ تريد أن ترهب أعداءها، وتعلن عن نفسها إعلانًا قويًّا لن تجد أفضل من هذا القطار المكتظ كي تحيله إلى كومةٍ من الأشلاء لترفع رايتها عاليًا.

كدتُ أبتسم، لم أتصور النهاية سريعةً هكذا، وشديدة الضجة أيضًا هكذا، ولكني الآن أكسل مَن أن أتحرك لمغادرة المترو، وبالتأكيد لا أريد الصراخ، إذا كانت النهاية قد جاءت، فلتأتِ ولتضع لمساتها كما تريد.

أتأمل الشاب المفخخ، يبدو من أبناء المدينة، ويرتدي أيضًا ملابس غالية الثمن، لطالما تصورت أن المفخخ سيكون من أبناء الريف، فالريفيون لديهم أسبابٌ كثيرةٌ لكراهية العالم لكن الآن لا أظن أن الموت على يد ريفيٍّ سيختلف كثيرًا على يد ابن مدينةٍ، فلن يوجد الوقت للتفاخر أو الخجل من الأمر.

أمامي يجلس رجلٌ مسنٌ يحمل عصا يمسكها بيديه الاثنتين، ويريح ذقنه عليها، ويشاهد هو الآخر راكبي المترو بعينين نصف مفتوحتين، أحببتُ منظره، كانت آخر صور الرب التي تخيلتها ليست بعيدةً عن هذا المنظر،

رجلٌ عجوز يشاهد العالم بهدوءٍ، دون انفعالٍ أو رغبةٍ في التدخُّل. قديمًا كنت أريدُ أن أصبح عجوزا فقط من أجل امتلاك نظرةٍ كتلك، ولكن لا يبدو أن صديقي المفخخ سيمنحني تلك الفرصة، ما يزال بجانبي، ولم يهتم حتى بإغلاق الجاكيت، لا يبدو عليه الاستعجال، ولا أظن أنه استقل القطار كوسيلة مواصلاتٍ ليذهب إلى وجهةٍ أخرى، بالتأكيد هنا وجهته الأخيرة.

في زاوية الباب يقف شابان لم يتوقفا عن المزاح منذ ركبا، في البداية كانا شديدي الصخب، ولكن الآن يتحدثان فيما يشبه الهمس، لم أعرف كيف يمكنهما سماع بعضهما، ويبدو أن يد أحدهما تداعب عضو الآخر، هكذا إذنْ يبدو أن المدينة تتغير كثيرًا منذ الصباح، اللعنة على رئيسٍ في عملٍ تافهٍ، أضاع عليَّ متابعة كل هذه التغيرات التي تحدث في المدينة منذ الصباح.

لم يكن الشابان في زاوية الباب وحدهما اللذين يستمتعان ببعضهما البعض وسط اهتزازات القطار، ففي المقعد الذي يلي مقعدي كان هناك شابٌّ أوشك أن يخرج ثدي الفتاة التي يُقبِّلها بالكامل خارج ملابسها، كانا مندمجين تمامًا في قبلاتهما، ولم يُعِرْهما أحدٌ اهتمامًا، ولا حتى الشاب المفخخ، لم أعرف إن كانت متابعتهما أمرًا سيرضيه، أو سيزيده غيظًا، هل سيسارع بتفجيرنا جميعًا، أم ربما يؤجل موتنا قليلًا من أجل خاطر أن تكتمل القبلات من حولنا.

كدتُ أميل على الشاب المفخخ وأخبره أن دع هؤلاء، ستصنع ضوضاء

كثيرةً هنا، وأيضًا ستعطل المرور لساعاتٍ طويلةٍ، وتعالَ معي، سأهديك مجموعةً خاصةً منتقاةً من أجل تفجيرهم، سأمنحك رئيسي في العمل.. أجل أجل لا يملك وجهًا، لقد فرقته على الركاب، فقط يمتلك لسانًا ضخمًا بشعًا يتزلف به إلى الجميع، وأيضًا مجموعة من القحاب الذين أعمل معهم رجالًا ونساء، وسأعطيك مكأفاةً على صبرك معي، رئيس الشركة بنفسه، وأيضًا مبنى الشركة كله؛ كي تسعد بقدرٍ لا بأس به من الدمار، هناك يا عزيزي صدقني ستكون الضجة مبهجةً جدًّا، سيُقام حفلٌ راقصٌ على أطراف النيران، حفلٌ صاخبٌ سيُعلي من ضوضاءه صوتُ التفجير الذي سيكون إشارة البدء للجميع كي يبدؤوا الرقص.

حفلةٌ

انطق..

كانـت صرخته مدويةً، ثـم بعدها كانت كفه تطـير لتضرب وجهي، أول مـا تذكرته لحظة ارتطمت صفعته بخدي كانت الشـوكة الرنانة، أنا تركت المدرسـة منذ وقتٍ طويلٍ، وأصلًا لم أمكث فيها سـوى سـنواتٍ قليلةٍ، وكنت معجبًا بتـلك الآلة، رأيتها مرةً مع أحد المدرسـين، وضع طبقًـا مملوءًا بالماء، ثم ضرب فكي الشـوكة على المنضدة ووضعها بسرعةٍ على سطح المياه، فصنعت دوائر صغيرةً متتابعةً، راحت تكبر حتى حواف الطبق، بالضبط كانت صفعته هي الشوكة الرنانة، وكان وجهي سطح الماء،

أحسستُ أن كل ما يحمله رأسي قد انخلع من مكانه وراح يهتز، لم أسمع وسط اهتزازتي ما تفوه به من كلماتٍ سريعةٍ، واحتجت بعض الوقت كي أستعيد وعيي بما حولي.

كان يجلس على مقعدٍ أمامي يشعل سيجارةً، وكنتُ أمامه على مقعدٍ آخر، أشعرتني صفعته بالخطر، لم تكن تلك الضربة الأولى التي تلقيتها منذ أن أفقتُ، سبقتها العديد من اللكمات والرفسات والصفعات، لكني لم أكن قد أفقتُ تمامًا، فلم أشعرْ بألمها ساعتها، لكن الآن بعد تلك الصفعة، بدأتِ الآلام في الاستيقاظ، ما زلت أشعرُ أن شيئًا يهتز داخل رأسي، ولم أتمكن من الرؤية جيدًا، كنتُ أشعر أن إحدى عينيَّ وارمةٌ، كان خليطٌ من المخاط والدموع والدم ينزل في فمي، من أنفي وجروح في وجهي، تذكرت أني بُلْتُ على نفسي، كانت ضربة أخرى ـقبل الصفعةـ قد أفلتت بولي، فجأةً وجدت ساقي بنطالي مبلولتين، وأحسستُ كما لو أن عضوي أصبح خرطومًا يصب مياهًا غزيرةً، البلل الذي كان ساخنًا وقت نزوله، صار مثلجًا الآن، كنت ملتفًا بسوائلي اللزجة بول، دم، مخاط، عرق، دموع، وكنت أشعر بالخوف.

من بين دموعي ومخاطي خرج صوتي متقطعًا: سيدي، ألا تذكرني، أنا إبراهيم يا سيدي، إبراهيم بائع الولاعات في مدخل البناية، أنت مررت بي من قبل، وابتعتَ مني ولاعاتٍ، ولم أكن أرضى أن آخذ النقود يا سيدي، وأيضًا لم أعطك ولاعاتٍ رخيصةً من التي أبيعها عادةً، زملاؤك يعرفونني أيضًا، زملاؤك الذين ينصبون نقطة التفتيش على أول الشارع يا سيدي،

اسألهم عني، اسألهم عن إبراهيم بائع الولاعات يا سيدي، سيقولون لك إني رجلٌ مسكينٌ، ابتعت لهم الطعام مراتٍ عديدةً، والسجائر، وأعطيتهم ولاعاتٍ بالمجان أيضًا، وهم كانوا يعطونني بعض النقود يا سيدي، لم أقل لهم أبدًا إنها كانت قليلةً، كانت تسعدني خدمتهم، كما تسعدني خدمتك بكل تأكيدٍ يا سيدي، اسألهم عني، هم كانوا يعطونني أحيانًا قطعًا صغيرةً من الحشيش من التي يضبطونها مع سكارى آخر الليل، وكنتُ أدخنها وحدي، أقسم لك يا سيدي أني كنت أدخنها وحدي على سطح العمارة، ساعة الفجر، لم أشارك فيها أحدًا، أنا كنتُ خادمهم يا سيدي وقت ينصبون نقطة التفتيش، اسألهم فقط عني، وسيؤكدون لك أني مسكين الشارع.

سأروي لك كل ما حدث يا سيدي، لا.. لا ليس كل ما حدث، فقط ما رأيته، فأنا لا أعرف ماذا حدث. هم جاءوا آخر الليل يا سيدي، هذا هو وقتهم المعتاد، أنتم تعرفونهم يا سيدي، ليست هذه المرة الأولى، جاءوا مراتٍ من قبل، لكن لم أكن أعرف مواقيتهم، فجأةً يظهرون بسياراتهم، ويصفونها في الشارع كيفما اتفق، في آخر الليل يا سيدي لا يوجد الكثير من المارة، ولا السيارات، فقط هم كانوا الموجودين، فتحوا أبواب سياراتهم، وارتفعت أصوات موسيقاهم المزعجة، هي شديدة الإزعاج يا سيدي، لكنها تبهجهم، أخرجوا زجاجاتهم كما يفعلون كل مرةٍ، وشربوا، ثم ألقوا بالزجاجات على الأرض، وأخرجوا زجاجاتٍ غيرها، وراحوا يرقصون، هذه هي حفلتهم المعتادة يا سيدي، يشربون كثيرا، ثم يرقصون، وعندما يبدأون في التساقط، يجرجر الصاحون منهم مَن سقط إلى السيارات وينصرفون.

أريد أن أقول لك يا سيدي، إنه في هذه المرة، انصرفت دوريتكم بعد أن وصولوا هم بقليلٍ، فظننتُ أنكم راضون عنهم، هم أيضًا يا سيدي لا يؤذون أحدًا، ربما يؤذونَ أنفسهم، لكن بخلاف زجاجاتهم المكسورة على الأرض، لا يوجد ضررٌ، شبابٌ يا سيدي، أنت تعرف الشباب وهياجهم.

لكـن هذه المرة كانت مختلفةً، كانوا أكثر هياجًا، وخمرهم كانت مختلفةً أيضًا، كانوا يصبون في الأكواب، ثم يشعلون فيها النار، ويناولون بعضهم تلك الأكواب المشتعلة، لم أرَ من قبلُ مَن يشرب النيران يا سيدي، لكنهم شربوها، وزاد هياجهم. أخذوا مني كل الولاعات، وأعطوني نقودًا كثيرةً، أيضًا أعطوني كوبًا ممَّا يشربون.

شربتُ منهـم كوبًا واحدًا، كانوا يضحكون عليَّ وأنا أشرب الكوب، ضحكوا عليَّ كثيرًا، وكرهتهم يا سـيدي، واختلطت الرؤيا، لم أعد أفهم، رأيتهم يخرجون شـفراتٍ، وسكاكين صغيرةً، وراحوا يتعرون، ويضرب بعضهـم بعضًا بهذه الشـفرات، لم يكن ضربًا، ولكنهـم بدوا كما لو كانوا يرسمون على أجسـادهم، في مدخل البناية تعرت فتاتان بالكامل، كانت ضجتهم عاليةً تلك المرة يا سـيدي، وكلما سالت الدماء على جسدٍ، كانوا صراخهـم يزيد، آخر ما رأيته يا سـيدي، كان فخذ فتاةٍ شـديد البياض، وكانوا يلتفون حولها ويلمسـون فخذها بشـفراتهم، ودماء الفتاة تسيل، وهي تضحك، لم تكن تتألم، أو هكذا بدتْ، نمتُ بعدها يا سيدي، لم أعرف كيف انتهت حفلتهم، كان فخذ الفتاة الأبيض آخر ما رأيته.. صدقني.. أنا إبراهيم يا سـيدي.. اسأل عني.. سيخبرونك أني كنت نائمًا.. ولا أعرف ماذا حدث.

نوستالجيا

أجل.. قتلتها هذا الصباح.

كنتُ قد استيقظتُ على صوت صراخها، وطرقها بالأواني على حيطان البيت، لم تكن تلك المرة الأولى التي أستيقظ فيها على هذه الحفلة الصباحية الكريهة، قررت أنه لا بدَّ من إنهاء الأمر اليوم، خرجتُ من السرير، فتحت باب شقتي، وكنت لا أزال بملابس النوم، نزلتُ إلى شقتها، رننتُ الجرس كثيرًا حتى انتبهت وسط صراخها، ظنتني زوجها، فتحت الباب، أطلت عليَّ بشعرٍ مهوَّشٍ، ومخاطها يسيل على شفتيها، كانت تتنفس بسرعةٍ من فرط الصراخ، عندما رأتني كانت على وشك أن تغلق الباب مرةً أخرى،

لكني كنت قد تقدمت خطوةً بحيث شغلت حيز الباب، وضعتُ يدًا على كتفها، ورحت بالأخرى أمسح على رأسها بهدوءٍ، وقلتُ لها: "بس بقى يا مديحة.. كفاية كده". وهوب.. يدٌ خلف رأسها، والأخرى أمسكت بها ذقنها.. ثم أدرت رأسها بحركةٍ سريعةٍ مفاجئةٍ، سمعتُ صوت طرقعة عظام رقبتها. ثم أعدت رأسها مرةً أخرى في مواجهتي، كانت في عينيها نفس النظرة البلهاء الناظرة إلى اللا شيء، تركتها تسقط أمام الباب، وأغلقتُه ورائي، وصعدتُ إلى شقتي.

***

كنتُ أنا مَن جلب لنفسه هذا الصداع الصباحي، كان صديقي دائم الشكوى من زوجته، ومن مرضها العصبي العصي على الشفاء، بعد وفاة جميع أفراد أسرتها في حادث سيَّارةٍ، أُصيبت بانهيارٍ عصبيٍّ حادٍّ، ثم تبعه فترة صمتٍ طويلةٌ استمرت قرابة العام كما حكى لي، وبعد الصمت بدأت فترة الصراخ، ساعاتٍ طويلةً كانت تقضيها مديحة في الصراخ، ثم دخل مع الصراخ الطرق، كانت تصرخ وتمسك بأي شيءٍ لتطرق به على الحائط، أو تخبط أواني المطبخ في بعضها البعض.

في بداية مرضها، دخلت مديحة مصحةً نفسيةً، لكن مع مرور الوقت عجز صديقي عن دفع مصاريف المشفى، فقرر إخراجها ورعايتها بالمنزل، وبعد فترةٍ كان قد ملَّ الأمر تمامًا، لذا كان يمضي معظم وقته خارج البيت،

بعد أن قام بإفراغه من أغلب محتوياته، ولكنه ترك لها ما يُساعدها على الطرق قليلًا، في الفترة الأخيرة تزايدت شكاوي جيرانه من الضوضاء الصادرة من شقته، ساعتها وبغبائي الشديد، طرحتُ عليه أن ينتقل للسكن في العمارة التي أسكن بها، كنتُ أسكن في منطقةٍ هادئةٍ نسبيًّا، وفي عمارةٍ صغيرةٍ، فقط ثلاثة أدوارٍ، كنتُ أشغل الطابق الثالث مع زوجتي، بينما كانت شقة الطابق الثاني فارغةً، وفي الطابق الأرضي جراجٌ كبيرٌ، كان صاحب البيت ـالمهاجر خارج البلادـ قد عرض عليَّ كثيرًا أن أشتري العمارة كلها، ولكني كنت أُسوِّف كثيرًا في هذا الأمر، لذا عندما أرسلتُ له برغبة أحد أصدقائي في استئجار شقة الطابق الثاني، وافق على الفور.. وهكذا انتقل صديقي ومديحة إلى البيت.. وكان هذا منذ شهرٍ تقريبًا.

***

بالمناسبة ليس القتل صعبًا إلى هذه الدرجة التي تصورها السينما والأعمال الأدبية وحكايات الناس المزيفة، الأمر أكثر بساطةً بكثيرٍ، صنعتُ لنفسي قهوةً، ولففت سيجارةً، وخرجتُ أُدخنها في البلكونة، بل يمكن القول بأن الأمر طبيعيٌّ أيضًا، أندهش كثيرًا عندما أكون في صحبة مجموعةٍ من البشر، ويذيع التليفزيون خبرًا عن ضحايا حربٍ، أو اقتتالٍ أهليٍّ، ساعتها يتأففون من سهولة القتل وإزهاق النفس البشرية في عالمنا المعاصر، كنت أندهش لماذا يستغربون الأمر لهذه الدرجة، كنت أودّ أحيانًا أن أسأل أحدهم كم

نملةً قتل على مـدار حياته، وكم صرصارًا أو فأرًا أو دجاجةً أو خروفًا.. إلخ، لماذا يبدو لهم قتل فأرٍ أمرًا طبيعيًّا، أو قتل ثورٍ أمرًا احتفاليًّا بينما قتل إنسانٍ يحتاج كل هذا التأفف والاستنكار؟! ساعتها أتمنى الوصول لمترجمٍ ومكبرٍ لأصوات النمل وهي تُدهس، كي يعرف هذا الإنسـان التافه قدر العذاب الذي يسببه للآخرين، وهو لا يهتم لما يفعله إطلاقًا. قتل نملةٍ هو من أكثر الأمور عاديةً في حياة البشر، فلمَ يصدمون عند قتل إنسانٍ؟

***

كنـتُ أريد معاودة النوم، التخلص من مديحـة جعل البيت هادئًا من جديـدٍ، وزوجتي في رحلة عملٍ منذ ثلاثة أيـامٍ، ولديَّ أربعة أيامٍ أخرى حتى تعود، لففتُ سيجارة حشيشٍ، وقررتُ تدخينها في السرير، قبل أن أنـام. ابتسـمتُ وأنا أتذكر ذلك اليوم الذي صارحـتُ فيه إخوتي بولعي بالقتل، وصارحوني هم أيضًا بهـذا الولع، كنتُ أقتل الكتاكيت والفراخ التي تربيها أمي، أحمل الفرخة، وأمسكها من رقبتها وأدليها من على سور السـطوح، كنتُ أفرح برفرفـة جناحيها كثيرًا قبل أن تهمـد تمامًا، وأُلقي بهـا في الخرابة التي وراء بيتنا. كانت أمي تظن أن الفئران هي السـبب في تناقـص عدد دجاجاتها، إلى أن رأتني يومًا، وهاجت وضربتني، لكن أبي لم يعقـب عـلى الأمر كثيرًا، وطلب منها أن أقوم أنـا بذبح الفراخ فيما بعد بدلًا عنها.

في تلك الليلة وقبل أن ننام، قالت لي أختي الكبيرة: "يا عبيط ليه خليت ماما تشوفك؟!"، وضحك أخي الأصغر، وقال: "يا ابني، الفيران أحلى بكتير!".

منذ تلك الليلة صارت لعبة القتل أفضل ألعابنا على الإطلاق، قتلنا دجاجًا وبطًّا وفئرانًا وعِرَسًا، ومرةً قتلنا حمارًا كان دائم النهيق في الليل، ويسبب إزعاجًا لأبي.

ومرةً ـ كنا في منزلٍ ريفيٍّ يشبه منزل عائلة أبي في القرية، ولكن كانت عائلة أمي تشغل المنزل ـ قتلتُ مع إخوتي أحد أزواج خالاتنا، كان رجلًا هادئًا للوهلة الأُولى، وعلى وجهه شبه ابتسامةٍ لا تفارقه، ولكنه كان دائمًا ما ينتهز الفرصة لإحراجنا أمام أبي وأمي بسؤالنا أسئلةً عويصةً في مقرراتنا الدراسية، وسمعتُ مرةً أمي تتحدث مع أبي كيف يضرب الرجل خالتي وأولادها ضربًا مبرحًا في نهاية كل أسبوعٍ، ودائمًا في نهاية الأسبوع.

يومها لم أنشغل كثيرًا لماذا لم نجد عائلة أبي هنا، ووجدنا عائلة أمي، ولكن ساعة أن شاهدنا زوج الخالة نظرنا لبعضنا أنا وإخوتي، واتفقنا.

خرج الجميع بعد العصر لزيارة بعض الأقرباء، كان نائمًا، وطلبنا من أمي البقاء في المنزل حيث إننا مرهقون من السفر، وبعدما ذهب الجميع، استيقظ هو، ذهبت إليه أختي الكبيرة وصرخت فيه أن أخي الصغير تعلق في حافة البئر في البيت البحري، وعلى وشك السقوط بداخلها، كان البيت

البحري عبارةً عن حجرتين من الطين اللبن كانوا يستخدمونه قديمًا للخبيز، حيث يوجد فرنٌ بلديٌّ قديمٌ، وأيضًا كانت هناك بئرٌ قديمةٌ لم يعد يستعملها أحدٌ منذ زمنٍ بعيدٍ. لم أعرف طوال الوقت لماذا يسمونه "البيت البحري" فلا يوجد بحرٌ هناك.. والمكان من الداخل دائمًا حارٌّ خانقٌ.

دخل خالي ـ وهكذا كنا ندعو جميع أزواج خالاتي ـ وهو يجري، كنا قد وضعنا خشبةً أمام مدخل الباب من الداخل لم ينتبه لها، فسقط على وجهه، وكنت وأخي الأصغر مستعدين كلٌّ منا بعصا كبيرةٍ.. لحظة سقوطه هتفنا في نفسٍ واحدٍ: "واحد.. اتنين.. تلاااتة"، وهوينا على رأسه.. طق، وانتهى الأمر.

ضحكنا كثيرًا على شكل رأسه المهشم.. ثم جذبناه أمام الفرن، ودلقنا الكثير من الكيروسين على جسده، وأشعلنا النار.

عندما اطمأننا إلى اشتعال جسده جيدًا، خرجنا وبدأنا في الصراخ، جاء الجيران، وحاولوا إطفاء النيران، لكنهم أخذوا بعض الوقت، كان كفيلًا بنهاية البيت البحري.

عندما عادت أمي وخالاتي من الخارج، أخبرناهم أن الخال عندما استيقظ سألنا إن كنا نريد أن نأكل بطاطا مشويةً، وطلب منا أن ننام قليلًا حتى ينتهي من الشواء، وأن آخر مرةٍ رأيناه وهو يحمل جركن الكيروسين من عند الجرار، ويتجه نحو البيت البحري.. وبعدها استيقظنا على جلبة

الحريق وصراخ الجيران.. وانتهى الأمر.

***

وقت مراهقتنا انشغل كلٌّ منا بأمرٍ ما، انشغل أخي الصغير بالموسيقى، وأصاب أختي ولعٌ بتحنيط الحشرات والحيوانات الصغيرة، وانشغلت أنا بالمخدرات، وكنتُ كلما وصلتُ لنوع مخدرٍ جديدٍ، نجهز سهرةً لنا وحدنا بدون أصدقاء؛ من أجل التجربة والاستمتاع بالاكتشاف الجديد، قبل أن نمرره إلى الأصدقاء، كانت أيام شـقاوتنا لطيفةً، سمعنا موسيقى كثيرةً، وشاهدنا أفلامًا بلا نهايةٍ، وحنطت أختي حشراتٍ عجيبةً.

مرةً سبَّ أحد جيراننا أمي؛ لأن غسيلها نقَّط مياهًا على سيارته المركونة تحت بيتنا، حزنت أمي ساعتها، وحاولنا تطييب خاطرها، وبعدها بأسبوعٍ كان أمي وأبي يؤديان واجب العزاء في أحد أقاربنا في مدينةٍ أخرى، وسيعودان في اليوم التالي، ذهبت للجار، وكان سبَّاكًا، وأخبرته أن حنفية أوضة السطوح قد انكسرت، وأن الغرفة والسطح على وشك الامتلاء بالمياه، جاء الرجل متأففًا، وصعد خلفي إلى السطوح.

كانت غرفة السـطوح محل تربية الفراخ والأرانب وقت طفولتنا، وفي مراهقتنا أجبرنا أمي وأبي على التوقف عن ذلك، وأعددنا الغرفة كي يمارس بها أخي الصغير هوايته في لعب الموسيقى، قمنا بتغطية كل حوائط الغرفة

وسقفها بكراتين البيض والإسفنج كي تعزل الأصوات جيدًا بداخلها. وفي الأوضة قررنا معاقبة الجار الذي سب أمنا.

أعددنا الأمر جيدًا.. وقف أخي خلفه، وضربه على رأسه ضربةً خفيفةً كفيلةً فقط بإفقاده الوعي، سحبناه للداخل، قيدناه على المقعد الكبير.. ورفعنا ساقيه على دعاماتٍ خشبيةٍ، ووضعنا تحته الطشت النحاسي الكبير الذي ورثته أمي عن أمها، لكنها لم تكن تستعمله أبدًا، وأيضًا ترفض التخلص منه، تناولنا الأقراص الجديدة التي وصلتُ إليها، وجلب أخي منشار عمي الكهربائي الذي تركه في منزلنا، وجهزت أختي طاسةً كبيرةً، وملأتها بالزيت، وأشعلت الوابور. وضع أخي موسيقى صاخبةً، وبدأ مفعول الأقراص في العمل، وبدأنا في الضحك عندما صفعتُ الجار السيئ الخلق، وأفاق مذهولًا، كان ضحكنا صاخبًا، والموسيقى صاخبةً، وصوت الوابور صاخبًا، وصوت المنشار الكهربائي صاخبًا، وبدأ الجار في الصراخ، ونحن نضحك، يا الله لكم ضحكنا في هذه الليلة.

كان الرجل يصرخ ونحن نضحك؛ لأننا لم نفهم لماذا يصرخ ولم نفعل به شيئًا بعد، فجأةً هوى أخي بالمنشار الكهربائي على كف الجار، فسقطت سريعًا في الطشت النحاسي، كنا نظن أن العظم أكثر صلابةً من هذا، لكنه كان هشًّا فعلًا، التقطتُ الكف المقطوعة ووضعتها سريعًا في طاسة أختي المليئة بالزيت الساخن، اتسعت عينا الجار وهو ينظر إلى كفه في الطاسة وهي تُقلى، فلم يحتمل التافه، وأُغمى عليه مرةً أخرى، أكملنا تقطيعه بهدوءٍ..

وليلتها تفننت أختى في سلخه وتقطيعه قطعًا مختلفة الأحجام، وانتهى الأمر بسرعةٍ، قسمناه في ثلاثة أكياسٍ، وحمل كلٌّ منا كيسًا، وخرجنا، ابتعنا زجاجة خمرٍ، وخرجنا إلى البحر، وشربنا كثيرًا، وألقيناه كيسًا وراء كيسٍ.. وعندما انتهت الزجاجة عدنا للبيت مرهقين من المتعة.. كم كانت جميلةً أيام مراهقتنا.

الآن أريد أن أنام، أرجو أن تكوني بخيرٍ الآن يا مديحة، وأنتَ أيضًا يا صديقي أرجو أن تنعم الآن ببعض الهدوء.

بدون تخطيطٍ

استيقظتُ بصداعٍ خفيفٍ من شرب البارحة، مكثتُ قليلًا في السرير أفكر في بقايا الحلم الذي رأيته. عادةً لا أتذكر أحلامي، وما أتذكره هي الكوابيس فقط، ولكن أيضًا يحدث هذا على فتراتٍ متباعدةٍ، فأحيانا أستيقظ ومازالت عالقة بذهني صور مهزوزة قليلا أو مشاهد متقطعة، سرعان ما تختفي وأنا أتبرز بعد استيقاظي.

كنتُ في قريةٍ مع واحدٍ لا أعرفه جيدًا، لا يمكنني القول بأننا أصدقاء، هو صديقٌ لأصدقاء، لا يحضر على بالي كثيرًا، ولكنه كان معي في الحلم. وكنا نجمع أخشاب بناء متفرقةٍ في الساحة، صنعنا هرمًا من تلك الأخشاب،

حولنا كانت عدة أحصنةٍ هادئةٍ تدس أفواهها الكبيرة في الأوعية التي أمامها، وبين حينٍ وآخر يهز أحد الأحصنة رأسه هاشًّا الذباب الذي يتراقص حول عينيه، ألقى صديق أصدقائي مزحةً سمجةً حول الأحصنة، فقالت عجوزٌ كانت مختفيةً في أحد الأركان تُنقي بعض الحبوب: "احذروا غضب الأحصنة".

واصل السمج نكاته، ناظرًا للعجوز.. فجأةً وجدت الأحصنة التي كانت هادئةً في الأركان تندفع جميعًا نحونا فاتحةً أفواهها وأسنانها الكبيرة بارزة واللعاب يسيل من بين أسنانها، كانت تبدو كأنها جُنَّت. استيقظتُ وأنا أحاول تسلق كومة الأخشاب التي راحت تتدحرج تحت قدمي وأفواه الأحصنة المجنونة التي يسيل منها اللعاب ورائي تمامًا، تحاول التهام قدمي، وكان السمج أيضًا يحاول التسلق.

خرجتُ من السرير، تبولتُ، وتوجهتُ إلى المطبخ لأعد القهوة، طاردًا أفواه الأحصنة المجنونة من ذهني، جلبتُ القهوة، لففتُ سيجارةً، جلستُ على المرحاض، رشفتُ من القهوة وأشعلت السيجارة، وسببتُ الدين للسمج الذي جعل الأحصنة تفتح أفواهها على هذا النحو المفزع والمقرف.

خرجتُ من المنزل، بلا خطةٍ معينةٍ، لا أريد أن أعمل، وليس هذا بجديدٍ، منذ فترةٍ طويلةٍ توقفتُ عن العمل، وليس لديَّ رغبةٌ في معاودة ذلك العمل البائس، أو أي أعمالٍ بائسةٍ أخرى، الجو باردٌ بعض الشيء، لكن

لا بأس به، هاتفتُ سميرة.. كثيرًا ما كانت تطلب لقائي وكنت أشعر بالملل منها، تضاجعنا عدة مراتٍ، وكان أحدنا يختفي بعد كل مضاجعةٍ، بالنسبة لي كانت تحب النكد، وتجيد اختراع الأسئلة التي تقلب حالة الاستمتاع لحالةٍ من الغضب وحرقة الدم. لكن لا بأس، اليوم يمكنني أن أستمتع بمداعباتها قليلًا، وأيضًا كي أكتشف كيف يمكنها أن تحرق دمي.

كأنَّ هناك حشرةً عملاقةً تزنُّ بهدوءٍ في آخر الممر، الصوت كان يخترق أذنيّ ويدفع بصبري للنفاد، كنت ازداد توترًا.. أشعلتُ سيجارةً، ورحتُ أشد أنفاسها بعمقٍ، وأنفخها بهدوءٍ.

لم أفهم لمَ اختارت تلك العمارة من أجل مقابلتها، عادةً ما كنتُ أقابلها في نطاق عملها، لكنها أحيانًا كانت ترفض، وتطلب أن نلتقي في أماكن بعيدةٍ. اليوم بعد أن هاتفتها، طلبت مني لقائها في ذلك المكان، وأرسلت لي خريطةً تخبرني كيف يمكن الوصول إليها دون الضياع في الحواري المتشابكة.

كنتُ أظن نفسي خبيرًا في جغرافيا المنطقة، لكن المكان الذي يفترض أن نلتقي فيه بدا وكأنه جزءٌ ممسوحٌ من خريطتي للمنطقة. أجل أعرف هذا الشارع، كنت أظنه مسدودًا.. لا في آخره الخرابة، والتي تحولت إلى جراج سياراتٍ. بحسب الخريطة تبدو المساحة وراء الخرابة كأنها بقعةٌ فارغةٌ صغيرةٌ، كنت أظن أن حدود المنطقة تنتهي هنا، لكن يبدو أن العمارة التي يجب أن أراها عندها تقع في تلك البقعة المجهولة.

لم أكن أريد أن يضيع مني هذا الملل اللذيذ الذي خرجتُ به من البيت، والانتظار يقتل كل لذةٍ، ندمتُ على أنني تمنيتُ أن أرى كيف ستحرق دمي، ولم أكن أريد أن تكون هذه هي حرقة الدم فقط دون أي مداعباتٍ.

وصلتني رسالةٌ منها: "عذرًا تأخرتُ عليك يا حبيبي.. دقائق وستكون تحتي.. وسأعصرك". أول ما خطر ببالي بعد أن قرأتُ رسالتها، أنها ربما قررت الانتحار ملقيةً بنفسها من إحدى نوافذ العمارة، لتسقط فوقي. نظرتُ دون إرادةٍ مني إلى أعلى، وتخيلتُ سميرة تسقط عاريةً بثدييها الكبيرين مطلقةً صرخةً أقرب لصرختها ساعة بلوغها النشوة. ويصبح هذا آخر مشهدٍ أراه في حياتي. امرأةٌ ضخمة تطير في الهواء عاريةً وهي تطلق صرخةً مغناجةً.

رحتُ أتحرك في المساحة المتاحة أمامي للحركة، ربما يمكنني تفادي سقوط سميرة، والاكتفاء بمشاهدة رأسها المحطم وجسدها الخمري البض وقد لوثه الدم والتراب.

حدثتني مرةً عن رغبتها في الانتحار، لتترك هذا العالم الذي لم يمنحها فرصة الصراخ في الشارع كما تحب، والذي لم تجد فيه ـ كما قالت ـ إلا العذاب.

تزوجت سميرة ثلاث مراتٍ، الأولى كانت في العشرين، وأنجبت طفلين. اعتادت أن تصف زوجها الأول بالمجنون ولم تحك عنه كثيرًا. ثم تزوجت ثانيةً، وقد ظنت أنها وجدت الحب، لكنها بعد عام من الزواج، احتملت فيه عنّة زوجها من أجل هذا الحب، عادت يومًا إلى البيت بعد أن

ذهبت لتبيت عند أمها لعدة أيامٍ كي ترى أطفالها قليلًا، لكنها رجعت بعد ساعاتٍ لتحضر ملابس مناسبةً، بعد أن أمطرت وبدأت موجة بردٍ ثقيلةٌ، لم تهاتف زوجها؛ كان من المفترض أنه غادر المنزل مسافرًا في مأمورية عملٍ لعدة أيامٍ، فُوجئت عند دخول البيت بزوجها الوسيم العنِّين عاريًا جالسًا على أحد كراسي السفرة منفرج الساقين ومومسٌ عاريةٌ بين ساقيه تمص عضوه الصغير ـكانت تحكي ضاحكةً أنه لا بد أن تكون المومس قد حصلت على الكثير من الأموال كي تقبل مص عضوٍ بهذا الحجمـ، كانت سميرة لا تمل من ذكر هذه الحكاية، وأحيانًا كانت تهددني بأنها ستفعل بي مثلما فعلتْ بزوجها الثاني.

قالت إنها لا تدري من أين جاءها هذا الهدوء، استوعبت المشهد في ثوانٍ، رأت وجه زوجها يشحب، وهو يغلق ساقيه غريزيًّا دون أن ينتبه إلى أن المومس لا تزال بين ساقيه، رفعت المرأة رأسها وفمها مفتوحٌ، واللعاب يسيل حول شفتيها، وكل ما قالته: "هو فيه إيه؟" ثلاث مراتٍ.

طلبت من زوجها عدم الحركة، ولـمَّا حاول أن يتكلم، صفعته، ثم سحبت كرسي السفرة المجاور له، وصعدت عليه لتجلس على سطح الطاولة أمام زوجها المفزوع، وضعت إحدى قدميها على الكرسي الذي صعدت عليه والأخرى بين ساقيّ زوجها، ثم بدأت تضغط على خصيتيه، صرخت في المومس الخائفة أن ترتدي ملابسها وتهرب إن كانت تريد الحفاظ على وجهها سليمًا. جرت المومس العارية إلى الحمَّام، بينما زادت هي من ضغط

قدمها على خصيتيه، كان وجهه يحمر، لكن دون أن يُخرج أي صوتٍ، قربتْ وجهها من وجهه، ثم همستْ أمام شفتيه: "كلم المحامي بتاعك".

أخرجت تليفونها من جيبها، واتصلت بالمحامي، ووضعت التليفون على أذن زوجها المتصبب عرقًا، قال الرجل كلماتٍ معدودةً، ثم أغلقت الهاتف، بينما كانت المومس بجوار الباب وقد ارتدت ملابسها بارتباكٍ، أشارت لها سميرة كي تقترب، اقتربت المرأة خائفةً لا تعرف كيف تتصرف، أعطتها سميرة كل ما كان في جيبها من أموالٍ، نظرت المومس إليها مذهولةً، ثم فجأةً صفعتها سميرة بقوةٍ، وصرخت فيها: "اطلعي بره".

عندما عادت إلى منزل أمها، كانت قد أنهت زيجتها الثانية، ربحت الشقة، ومبلغًا من المال، ومكث الزوج في المستشفى عدة أسابيع.

بعد ثلاثة أشهر، كانت زيجتها الثالثة.. رجلٌ غنيٌّ يكبرها بعشرين سنةً، طلب أن يكون الزواج سريًّا، وكان يمكث معها ساعتين أسبوعيًّا، تقلصا بعد وقتٍ قليلٍ إلى أقل من ذلك.. "الوقت الكافي لتنزيل بنطلونه، ورفعه تاني"، كانت سميرة تقولها أحيانًا بمرح وأحيانًا أخرى بأسى، ولكنها ربحت مصروفًا شهريًّا ضخمًا، وشقةً فخمةً مؤجرةً باسمها، إذ رفضت أن يأتي لها في شقتها التي ربحتها من زوجها الثاني، وظل أولادها يعيشون مع أمها، وكانت بين الحين والآخر تصطحب رجالًا معها ليقضوا بعض الوقت ثم تطردهم.

أحسستُ أن سميرة تسخر مني، لم تسقط من الأعلى عاريةً، ولم تأتِ،

ولم يتوقف صوت الحشرة العملاقة عن الزن، شعرتُ بنفسي عبيطًا ومثيرًا للرثاء، تذكرت أسنان الأحصنة ولعابها السائل، لففتُ سيجارةً أخرى، أشعلتُها، وانصرفتُ.

رغبةٌ محتملة

كانت بائعة البيتزا حزينةً، وكان حزنها باديًا للعيان. كلا، كي لا يُبالغ الواحد، لم يلحظ أحدٌ حزنها، لاحظته أنا؛ لأني كنت حزينًا أنا الآخر. في الحقيقة كل المارين في الشارع كانوا حزانى، لكن هناك مَن يترك حزنه على سجيته، ومَن يرسل حزنه ليلتقط إشارات حزن الآخرين، وهناك مَن يُداري هذا الحزن بالضحك، بالتركيز الشديد على أمرٍ تافهٍ، أو بالغضب، وهؤلاء أكثر الحزانى صخبًا وتفاهةً، ولكن يومها لم يدرك أحدٌ حزن بائعة البيتزا.

كان القادم الجديد بائسًا، بدا ذلك من نظرته الشاردة، تدخينه المستمر،

كأنما يتخفى وراء سجائره المتتابعة، يستغني بها عن فعل شيءٍ آخر أكثر فائدةً، هكذا هم الرجال البائسون، يظنون أن ثقل العالم يقع عليهم وحدهم، لذا عادةً ما يدخنون بشراهةٍ. وغالبًا لا يعرف البائس أنه كذلك، ولكنه يظن كأحمق أنه حزينٌ، الحزين هو فاعلٌ في حقيقة الأمر، بينما البائس مجرد مفعولٍ به، وهو يستمتع بترك نفسه يُفعل به.

بدأت يومها بشكلٍ عاديٍّ على ما يبدو، أشعلت الفرن وتركته كي يسخن تمامًا ويصبح جاهزًا لإنضاج أقراص البيتزا باقي اليوم، تخرج لتجلس على درجتَي السلم الموصلتين للمحل تدخن سيجارتها الأولى في العمل، بعدها تضع المناضد أمام الدرجتين، والكراسي القليلة، تخرج العجين المعدّ منذ ليلة أمس، وتنتظر أول زبائن اليوم. تبدو شاردةً طوال الوقت، تبتسم فقط عند الضرورة، لتلقي طلبٍ من زبونٍ، أو عند تسليمه ما طلب، غير ذلك تبقى عينها شاردةً وهي تمارس عملها.

الوافدون إما خافتون، أو صانعو ضجةٍ، يظنون أن ضجتهم تكفل لهم تملك المكان ولو لوقتٍ محدودٍ، كأنما هم أصحاب المكان الأصليون الذين لهم الحق في صنع الضجة. أو خافتون لظنهم أن الهدوء يمكنهم أيضًا من تملك المكان دون إثارة الأصليين.

وهؤلاء المقيمون أمامي يأتون من حينٍ لآخر، ترسلهم المؤسسة الكبيرة لمتابعة أعمالها المنتشرة في المنطقة، يقضون أيامًا قليلةً، أسبوعين على الأكثر، وبعدها يغادرون، ولا يتكررون، ويظل المنزل مغلقًا، وكل مرةٍ يأتي مبعوثٌ

جديدٌ، يغيب نهارًا، ويرجع للمسكن عند مغيب الشمس، يصنع ضجته، أو يتصنع هدوءَه، ثم بعد حينٍ يغادر، ولا يعود مرةً أخرى. وهذا الوافد الجديد؛ لأنه يبدو بائسًا، فهو ممن يتصنعون الهدوء.

دائـمًا ما أُقابل بتلك النظرة المتشـككة، أهل الأماكن الصغيرة عادةً ما يخشون الغريب، ليس لدرجة الخوف، ولكن تحمل نظرتهم دائمًا سؤالًا يتعذر عليَّ إجابته هكذا على نحو مباشرٍ: "كلا لست شريرًا، لا أريد الإضرار بأحدٍ أو بشيءٍ، فقط أريد إتمام عملي في هدوءٍ، ثم سـأرحل في هدوءٍ، وسأحمل عنكم أيضًا ذكرياتٍ طيبةً، أعرف أن هناك آخرين مزعجون، لكن أقسم لكم أني لسـت كذلك". هل يمكن أن يبـدأ الواحد حديثه مع كل الناس بهذا الشـكل؟! لكني تعودت على تلـك النظرة، فطبيعة عملي تجبرني على زيـارة أماكن كثيرةٍ صغيرةٍ في الأغلب؛ لمتابعـة ما يحدث من تطورات في المشـاريع التي تنشئُها الشركة، لذا تعودت على تلك النظرة، وحاولت أن تحمل نظرتي تلك الإجابة عسى أن يفهموها، ويقل تشكُّكَهم.

قبـل زمنٍ كنـتُ أحب تغير الوافديـن، تغير الوجوه كل فـترةٍ، أيضًا كنتُ أحب الكلام، كنتُ أحكي لهم، عن زملائهم السابقين، عن زبائني المعتادين، عن رجلٍ كنتُ أحبه، عن حال المدينة في الشتاء، وأسمع منهم أيضًـا حكاياتٍ عن مدنٍ صغـيرةٍ مثل مدينتنا، لا يدخلهـا الغرباء إلا في مواسم معينةٍ، ونضحك قليلًا ويتناولون عشاءهم ويرحلون، وبعدها يأتي آخرون، هكذا كانت حكاياتي دائمًا جديدةً، وحكاياتهم أيضًا التي سبق وأن كرروها مراتٍ عديدةً تصبح جديدةً هنا أمام محل البيتزا الصغير.

لكن تجمد الحب أو نفد، وأصبحت الأشـياء ثقيلةً، لفترةٍ كنتُ أشكو من الثقل، لكن الشـكوى من الثقل، أضحت ثقيلـةً هي الأخرى، مملةً، وتزداد ثقلًا كلما ترددت في الذهن أكثر، تصبح أشـبه بسورٍ يزداد ارتفاعًا وصلابةً حولي، ومع الوقت أصبح الحديث عنها أكثر خفوتًا، فلا جدوى من تكرار نفس الكلام، ولا جدوى من الآذان السامعة، وشعرتُ بسخافة الأمر أكثر كلما كانت الأذن السامعة جديدةً، فلا يمكن شرح كل ما فات، وليس فيه بالأسـاس ما يستحق الشرح، لذا أصبح الصمت حالةً دائمةً، موفرةً للطاقة كي يستمر بناء السور، وكي يصبح أكثر مناعةً ضد محاولات اختراقه عديمة الفائدة. وعلى مدار اليوم يزداد انغلاقي، وأنقسم لقسمين: قسم خارجيٌ يُشبه صدفة السلحفاة، أبدو به عاديّةً، أتحرك، أقوم بواجباتي المنزلية، وأمام فرن البيتزا وزبائني، أستمع، وأُشارك في الأحاديث أحيانًا، أرد عـلى تحية مَن ألقى إليَّ بالتحية، أضحك أيضًا، وأنفعل أحيانًا. وهناك في داخـل الصدفة أقبع أنا، خاملةً، مرهقـةً، ويبدو كل شيءٍ عديم المعنى إلا لحظة انبعاث رغبة محتملة.

أجلسُ في الشرفة، أتابع بائعة البيتزا وهي تعمل، أنهيت عملي اليوم، لا جديد، ولم أكن أتوقع جديدًا، فقط الا شياء المعتادة، وكل الأشياء أصبحت معتادةً، في العمل وخارج العمل، ما يبقى جديدًا فقط هو أن مكان وقوع الأشياء المعتادة، يتغير، لكن الأشياء لا تتغير، وبحكم العمل تأكدتُ من فرضيتي، من حينٍ لآخر أزور مكانًا جديدًا، ولا شيء يدهشني، حتى بائعة البيتزا، قابلتُ مثلها من قبل، لكن هذه المرة ليس لديَّ غيرها لأشـاهده،

[illegible] صغيرٌ، مقهيان صغيران عبرتُ بهما اليوم، وبائعة البيتزا الحزينة أمام شرفتي؛ أفكر لماذا لا نتبادل معًا حديثًا طويلًا، أحدثها عن الأشـياء البعيدة وتحدثني عن حزنها، أو أحدثها عن حزني وتحدثني هي عن الأشياء البعيدة. لا فرق؛ المهم أن نتحدث، أو المهم أن ينقضي الوقت، وقتي هنا، وأيضًا وقتها؛ [illegible] تنتهي؛ وتقربنا جميعًا من المغادرة. لن أبتكر لها حكاياتٍ جديدةً ولن أبالغ في روايةِ أي حدثٍ، ولا أظن أن بها طاقةً لفعل مثل هذه الأشياء. فقط يكفي أن نتحدث. أن تحملنا الأصوات ليس إلى مكانٍ جديدٍ، ولكن أعلى بعض الشيء. أعلى قليلًا إلى أن نسقط نائمين.

حتمًا سيأتي بعد قليلٍ ليشتري عشـاءه من هنا، وأيضًا سيُحاول خلق حديثٍ معي. ولا أعرف ماذا سأفعل كالعادة، ربما أبتسم تلك الابتسامة التي يعرف من خلالها أنني مستمعة قليلًا وينصرف، وربما أجاريه في الحديث قليلًا. وربما لا أجاريه ولا أبتسـم، وأتركه يعود لمسـكنه خائبًا، ليضيف [illegible] حياته وحدةً جديدةً.

هل يمكنني معرفة لماذا هي حزينة هكذا. هل اكتشـفت خيانة زوجها مثلًا؟ اكتشف هو علاقتها العابرة بالصدفة وتركها ورحل؟ ملت المدينة الصغيرة وتعبها؟ اكتشـفت أنها لم تحقق حلمًا واحـدًا من أحلامها فترة المراهقة؟ حان موعد سداد الأقسـاط ولا تجد أمـوالًا؟ تخاف التجاعيد الخبيثة على وجهها؟ بحثت في كل الأسـباب ممكنةً، وكلهـا تافهةً أيضًا، والحقيقة أن الشفقة وحدها تمكني مـن معرفة لماذا هـي حزينةٌ هكذا؟

ولم أعـرف لمَ أورط نفسي في الإجابة على سـؤالٍ لا يخصني بالمرة، ولكن ليس لديَّ ما يمنعني من التورط في تفاهات الآخرين، طالما أني أشعر بتلك الرغبة المحتملة هنا في الشرفة أمام بائعة البيتزا الحزينة.

بدأ في التحرك ناحيتي. هل نظرتها هذه المرة تعني أنها ستتحدث. يبدو مرتبكا لا يعرف ماذا يفعل بالضبط، يغلق الباب أم يشعل السيجارة المدلاة من شفتيه. أشعلتْ سيجارتها، وراحت نظرتها لتشرد في مكانٍ آخر. سيارة تأتي من آخر الطريق، سأعبر الشارع بعدها. كان يمكنه عبور الشارع سريعًا، لكنه انتظر السيارة البعيدة كي تعبر أولًا، هل يفكر كيف سيبدأ الحديث؟ عبرتُ الطريق وهي لا تزال شـاردةً ولم تـرني، رغم أن العابرين قليلون، أُوجِّه نظرتي عليها بشـكلٍ مباشرٍ علَّها تسـتيقظ. لا بدَّ أن أقوم الآن فهو على بعد خطواتٍ، وأشعرُ بنظرته عليَّ تدعوني لشيءٍ ما، لم أقرر بعد كيف سـأتصرف. تحركتْ من مكانها لتقف أمـام باب المحل، تبدو في انتظاري كزبونٍ حزينٍ يأتي آخر الليل ليطلب عشـاءً، لكـن نظرتها في مكانٍ آخر. رددتُ على تحيته باقتضابٍ، وقف في انتظار تنفيذ طلبه، أشـعل سـيجارةً أخرى. كان ردها على تحيتي جافًّا، أشـعلتُ سـيجارةً وراحت رغبتي في تبادل الأصوات تتناقص. لا يمتلك البائسون شجاعة الاقتحام؛ لذا هم بائسون، راقبتُ دخان سجائره، وجانب وجهه، لن ينظر إليَّ لأنه يخاف. لم أعرف ماذا أفعلُ في تلك الدقائق، ولم أنظر إليها حتى، كانت بعيدةً تمامًا مع نظرتها الشاردة. حاولتُ النداء عليه ليأخذ البيتزا التي طلبها لكنه لم يسمع، ربتُّ على كتفه فاستدار مندهشًـا، بدا على وشك الكلام. فوجئت بيديها

على كتفي، استدرتُ لها، لكن صندوق البيتزا كان في صدري تقريبًا كأنما تدفعني به، لمسة كفها لكتفي أشعرتني بإمكانيةٍ ما، لكن صندوق البيتزا في صدري دفعني للرحيل. كان الصندوق بيننا كجسرٍ كرتونيٍّ يلهو به أطفالٌ، لكنه كان مصدومًا من رؤية الصندوق بيننا، كان من الممكن أن أحول الأمر لمزحةٍ، لكن الأمر كان أكثر تفاهةً من ذلك، فقد انصرف.

طلبُ مساعدةٍ

كنتُ واقفًا على رصيف محطة بلدتي القديمة، أنتظرُ القطار، كنتُ أحمل حقائب كثيرةً.. لا أدري لماذا كل هذا القدر من الحقائب، كانت خفيفةً، كل واحدةٍ منهنَّ بداخلها شيءٌ أو اثنان، كان من الممكن جمع كل هذه الأشياء في حقيبةٍ واحدةٍ بدلًا من كل هذه الحقائب التي لا أدري كيف أحملها معًا جميعًا. وأيضًا أحمل ابني، لم أستطع حتى تبين إن كان ابني، أو بنتي، أو شقيقتي الصغرى.

كان الصداع يمزق رأسي، أشعر أن جبهتي ستنفجر من الألم، اللعنة على الشراب، لكني لا أذكر أني شربتُ كل هذه الكمية التي يمكن أن

تتسبب في هذا الصداع الفظيع، سمعتُ صوت القطار قادمًا، بدأت في تخليص ذراعي من أحزمة الحقائب لأصل إلى وضع يُمكِّنني من حملها جميعًا، وأيضًا حمل ابني أو ابنتي أو شقيقتي الصغرى.

بدأ القطار يدخل الرَّصيف، كانت قاطرته تنفثُ دُخانًا كثيفًا يجعل السماء من ورائها رماديةً، بدت كقاطرة بخارية قديمة ولم يكن قطارنا كذلك، على بعد أمتارٍ منِّي شاهدتُ عمتي واقفةً مع أولادها يبتسمون لي. أليست مريضةً تلك المرأة الآن؟ ومن المفترض أن تكون في أحد مستشفيات المدينة القريبة؟ لكنها تبدو جيدةً، ووجهها يشع صحةً. اللعنة على الشراب وعلى الصداع وعلى كل ذلك الدخان الكثيف الذي يمنعني من التركيز، ومعرفة ما الخطوة التالية التي يجب عليّ أن أقوم بها.

عندما مرت القاطرة بجانبي لاحظتُ أنها تجر عربةً واحدةً فقط، لم يكن قطارنا قطُّ ذا عربةٍ واحدةٍ، بالتأكيد لم يكن مثل القطار الكبير الذي يُسافر بين المدن، لكنه أيضًا لم يكن ذا عربةٍ واحدةٍ. أيضًا كان القطار يمشي أمتارًا قليلةً ثم يقف، يمشي ثم يقف، لم أستطع تحديد إن كان ذلك مقدمةً للوقوف النهائي، حتى يستطيع الركاب الصعود، أم أنه يتوجب عليَّ أن أقفز في القطار لحظة توقفه.

ساعتها بدأتُ ألاحظ أن عمتي وأولادها كانوا يلاعبون ابني أو ابنتي أو شقيقتي الصُّغرى، لذا قررت أن أدع هذا القطار المزعج يمرُّ وسأركب القطار التالي، وربما ساعتها يكون صداعي قد خف قليلًا.

لم أعرف لماذا لم تتحرك العمة وأولادها نحوي، كنت أعرف لماذا لم أتحرك أنا، فمنظري واضحٌ.. أحمل حقائب كثيرةً، ومعي طفلٌ أو طفلةٌ لا يهم، وأظن أيضًا أن عيني ووجهي يمكن أن يفهم منهما أنني لست بخيرٍ.

بدأ الطفل يحبو نحوهم، وبدأت ابنة عمتي الوسطى تلوح لي بيدها أن أخرج من نهاية الرصيف، ثم أعود لأدخل من مدخل المحطة الذي يقع في منتصف الرصيف كي يلاعبوا الطفل قليلًا.

راقتْ لي الفكرة؛ فربما تسمح هذه الحركة البسيطة في إزاحة الصداع قليلًا عن رأسي، وأيضًا ليجد الطفل أو الطفلة مَن يلهو معه حتى يأتي القطار. تركتُ الحقائب، ورأيتُ رأس الطفل ينظر لعمتي وأولادها، فانتهزتُ الفرصة، وتحركتُ ناحية آخر الرصيف.

كنتُ أحكُّ دماغي ليتدفق إليها شيءٌ من الدم، ليخفف عني الصداع، وفركتُ عيني لعلَّ رؤيتي تتحسن، تذكرت أن الطفل أو الطفلة معي لا يمكن أن تكون شقيقتي الصُّغرى، فزفافها بعد أسابيع، أجل كانت صغيرةً يومًا ما، وكنت شابًّا ساعتها، وكان البعض يظنون أنها ابنتي، لكن كان هذا من فترةٍ طويلةٍ، هي الآن على وشك الزواج.

توقفتُ لحظةً، خبطتُ رأسي بيدي، أنا لم أنجب بناتٍ، إذنْ لا بدَّ أن يكون الطفل هو أحد أولادي الذكور، اللعنة على الشراب. ما الذي شربته بالأساس ليلة أمس؟ لا أذكر. أمن الممكن أن يكون الشراب مغشوشًا؟ أمن الممكن أن أكون قد جننتُ من فرط الشراب، لدرجة أني لا أستطيع

إدراك إن كان الطفل أصلًا طفلًا أو طفلةً ولدي أو ابنتي أو شقيقتي. اللعنة مرةً أخرى.. شقيقتي ستتزوج، وأنا لم أنجبْ بناتٍ.

حاولت الإسراع من خطواتي، وسألت نفسي: لكن لماذا لم أنجب بناتٍ؟ كان إحساسًا لطيفًا ما شعرت به.. أن هذه ابنتي.

وصلتُ عند مدخل المحطة الصغير، شاهدتُ وجه ابنة عمتي خائفًا، وصرختْ أنها لا تجد الطفل. وقفتُ مكاني لا أدري ماذا أفعل كنتُ أريد أن أحمل حجرًا لأقذف به وجهها الملتاع، أحسست بالخوف يشل حركتي، لم أستطع التقاط أنفاسي جيدًا، وأطرافي ترتعش، وقفتُ على الرصيف لم أجد لا عمتي ولا ابنتها ولا أحدًا من أولادها.

عدتُ إلى الشارع مرةً أخرى، كان شديد الازدحام، متى أتى كل هؤلاء، لم أعرف إلى أين أتجه، هل ضاع طفلي حقًّا؟ حولي عرباتٌ ودراجاتٌ بخاريةٌ وعرباتٌ كارو، والجميع يصرخ ويطلق أبواقه عاليًا، بدأتُ أجري محاولًا النظر داخل السيارات وعلى المقهى المقابل وتحت الكراسي وبين البراميل الملقاة في الشارع.

"سأجده"، صرختُ بصوتٍ عالٍ، وواصلتُ الجري. دخلت الشارع المقابل للمحطة.. أعرفه هذا الشارع، كانت حضانتي هنا، لكنهم هدموها منذ زمنٍ بعيدٍ. كان الشارع هادئًا رغم الزحام الصاخب على أوَّله، بعد دقائق وجدتُ مبنى الحضانة كما هو قبل أن يهدموه بشرفته الدائرية التي كانت كبيرةً وقت كنتُ طفلًا، وظلَّت تصغر كلما كبرتُ، ولكن كيف عاد

المبنى؟ لقد هدموه منذ سنين طويلةٍ. اللعنة.. ألف لعنةٍ على الشراب.

لم أعرف مَن يمكن أن أسأله في هذا الشارع الهادئ، لم يكن هناك أحدٌ، كيف سيمكنني أن أجد طفلي هنا؟ مَن سيساعدني في البحث؟

كدتُ أدور على عقبيَّ للخروج من الشارع، قبل أن أسمع صوتًا يناديني، التفتُ لأجد شيرين تلوح لي، ما الذي أتى بها إلى هنا؟ لا أعرف، ولا يهمني، المهم أني وجدتُ أحدًا أعرفه، حتى ولو معرفةً عابرةً يمكنه أن يساعدني في البحث عن طفلي. جريتُ نحوها، كانت مبتسمةً ـأكثر شيئًا لفت انتباهي إلى شيرين منذ رأيتها أول مرةٍ هو ابتسامتها، لها ابتسامةُ طفلة عابثةـ عندما وصلتُ إليها بدأتُ أتكلم، وخرجتْ كلماتي متكسرةً بين أنفاسي المتلاحقة: "ساعديني.. ساعديني".

اتسعت ابتسامتها، وربَّتتْ على يدي، وقالت: "اطمئنَّ.. تعال يجب أن تشاهد البنسيون".

صرختُ فيها: "كيف أطمئن.. ابني.. أي بنسيون الذي يجب أن أشاهده؟".

ظلت مبتسمةً وجذبتني من يدي، إلى البناية المجاورة للحضانة وبدأتْ في صعود السلم، في الدور الأول فتحتْ بابًا، لندخل إلى شقةٍ فسيحةٍ جدًّا، تعجبتُ لرؤية كل هذا الاتساع، وأبواب غرفٍ، وممراتٍ عديدةٍ، كنتُ أظن أني أعرف هذا الحي جيدًا، ولم أكن أظنُّ أن هناك شقةً بكل هذا الاتساع.

كان هناك مجموعاتٌ من السائحين الأجانب يبدون كما لو كانوا في طريقهم لاختيار غرفٍ للإقامة في البنسيون.

"بولنديون.. يأتون إلى هنا كثيرًا"، قالت شيرين وهي لا تزال مبتسمةً، وتواصل شدّ ذراعي، كنا نعبر وسط البولنديين، لاحظت أن أكثرهم نساءً، لم يكن الجو حارًّا إلى هذه الدرجة التي تجعلهن يعبرن بملابسهم الداخلية أو بشورتاتٍ ضيقةٍ وقصيرةٍ جدًّا ـ شاهدتُ مجموعةً من المراهقات تسير وقد تركن أثداءهن بلا سوتياناتٍ ـ ولم أعرفْ كيف يمكنهم الخروج هكذا في شوارع بلدتي الصغيرة.

فتحتْ شيرين باب إحدى الغرف، وجذبتني وراءها، ولم تغلق الباب أو تشعل ضوء الغرفة، فتسرب ضوء الممر إلى الداخل ليجعل الغرفة نصف معتمةٍ، لم يكن بداخل الغرفة سوى سريرٍ عريضٍ من طرازٍ شاهدته فقط في الأفلام القديمة، لم أعرف كيف حصلوا عليه، وبجانبه كومودينو واحدٌ من نفس الموديل.

ألقتْ شيرين بنفسها على صدري، والتفت ذراعاها حول رقبتي دافعةً رأسي في مقابل وجهها، أحسستُ بجسدها ناعمًا، وهي تدفع نفسها باتجاهي، لم أعرف ما الذي تفعله، وما الذي يمكن أن أفعله، يجب الآن أن أبحث عن طفلي الضائع. واصلتْ شيرين تحسُّس جسدي، وأمسكتْ يدي لتضعها على ردفها ـ كان ممتلئًا متماسكًا دافئًا ـ والتقمتْ شفتيَّ، أحسستُ أني بدأتُ في التجاوب معها، وراحت يدي تتحرك على ردفيها، لكني أحسستُ كما

لو كانت قد توقفتْ، ظلت شفتي معلقةً داخل فمها، لم تكن قد توقفتْ، لكن كما لو كانت قد تحولت إلى تمثالٍ من المطاط. ابتعدتُ عنها مضطربًا، نظرتُ لها منتظرًا أن تتحرك، أن تبتسم مرةً أخرى، أن تُعلن لي عن أنها تلعب لعبةً سحريةً جديدةً مثلًا. لكنها ظلت كما هي.

أحسستُ برأسي يدور، وأنَّ طاقتي قد نفدتْ، لكني شاهدتُ عبر الضوء الداخل من الباب المواربِ، شابًّا نصف عارٍ، يلهو مع الفتيات عاريات الأثداء، وأصوات ضحكاتهم تصل إلى مسامعي، نظرتُ إلى الشاب، عرفتُ أنه ابني.. لم أشغل بالي كيف كبر هكذا.. ألقيتُ بنفسي على السرير، ونمتُ.

خططٌ طويلة الأجل

عزيزي خوليو،

منعتُ نفسي عدة مراتٍ من الكتابة إليك، ولكن في النهاية سألتُ نفسي لِمَ كل هذا التوتر؟ هي في النهاية رسالةٌ، سأثرثر فيها قليلًا، وربما لا تصل الرسالة إليك بالأساس، فقد احتفظتُ بعنوانك منذ سنواتٍ، ولا أدري إن كنتَ تُقيم في نفس العنوان أم أنك غيرتَ محل إقامتكَ. لن أنشغل بهذا الآن، سأنشغل الآن بالرسالة، وحينما أرسلها سأبدأُ في الانشغال هل وصلتك الرسالة أم لا، وهل سترد عليها أم لا؟ هكذا يجب أن يرتب الواحد انشغالاته، فيبقى مشغولًا طوال الوقت بأسئلةٍ لا يستطيع الإجابة

عليها، وهكذا يا عزيزي يمر الوقت.

لماذا أكتب إليك الآن؟ بالتأكيد ستسأل نفسك هذا السؤال، كما سألت نفسي كثيرًا، فمعرفتنا تكاد تكون سطحية، تقابلنا عدة مراتٍ بشكلٍ عابرٍ، وآخر مرةٍ كانت منذ زمنٍ طويلٍ. بصراحةٍ ودون الاختباء خلف مبرراتٍ غير صالحةٍ للصمود أمام عينيك الذكيتين، كنت أريد أن أكتب قصةً، وبشكلٍ مباشرٍ أكثر كنت أريد أن أكتب قصةً كما لو كنتَ تكتبها أنت.

لا أريد أن أسألك نصائح، فالواحد عند إعطاء نصائح للآخرين، يمكنه فقط تخيل وضع السائل ويكيف نصيحته حسب الوضع، ولكن من الصعب أن يعطي الواحد للآخر تصورًا عن كيف يمكنه أن يكتب قصةً، خصوصًا إذا كان موضوع القصة يخص شخصًا آخر. لكن الأمر أني أسأل نفسي منذ فترةٍ إذا كان خوليو هو مَن سيكتب القصة، فكيف يمكنه كتابتها، وكيف يمكنني أن أكتب القصة كأنَّ خوليو كاتبها.

كتابة قصة هي محاولةٌ للمشي في العدم، على أن تصبح كل خطوةٍ تحويلًا لهذا العدم إلى جزءٍ من العالم، لكني منذ أيامٍ أقف على أعتاب العدم وغير قادرٍ على رفع ساقي ولو بضعة سنتيمتراتٍ.

هناك، وفي تلك الأيام، أبدو مجرد هيكلٍ يتحرك، بلا أي رغبةٍ في أي شيءٍ، وبلا قدرةٍ على اتخاذ أي قرارٍ من أي نوعٍ، كأنَّ العدم على وشك أن يبتلعني، بينما من المفترض أن أحوِّل العدم ـ مع كتابتي للقصة ـ إلى شيءٍ آخر. رفْع كتابٍ مُلقى على الأرض يبدو ساعتها أمرًا بالغ الصعوبة،

يحتاج إلى الكثير من التفكير، ومحادثة النفس بضرورة رفع الكتاب من على الأرض، والاسترسال في أفكارٍ حول أهمية أن يعيش الواحد في محيطٍ منظمٍ بعض الشيء، وأن الكتب لا يجب أن تكون ملقاةً هكذا. ويمكن للأفكار أن تمضي على هذا النحو لوقتٍ طويلٍ، لكن دون الانحناء على الأرض والتقاط الكتاب.

وبالتالي تصبح كل التفاصيل التافهة ثقيلةً، خروج الكلمات من الفم أصلًا يحتاج إلى مجهودٍ، ماذا سنأكل؟ هل أخرج أم أظل باقيًا في البيت، وإذا خرجتُ أين يمكنني الذهاب؟ هل أقابل أصدقاء؟ وهل بقي لديَّ أصدقاء؟

تحممتُ وغيرتُ ملابسي عدة مراتٍ، اخترتُ البنطال الذي أحبه هذه الفترة، أحب يناطيلي عادةً قرب منتصف حياتها الاستعمالية، وأتراوح ساعتها بين حالين، إمَّا أن لا أرتديها بالمرة وأتركها للمناسبات الهامة، كي أشعر بالراحة في تلك الساعات، وإما أرتديها يوميًّا حتى تبلى تمامًا، وعادةً ما يحدث ذلك بعد وقتٍ قصيرٍ من بداية حبي لها.

لبستُ قميصين لم يعجباني، رغم أني فكرتُ فيهما من قبلُ، غيرتُ حذاءين أيضًا، وفكرتُ في البقاء عاريًا في المنزل. دخلتُ في مكالمةٍ هاتفيةٍ بلا معنى تقريبًا لساعةٍ كاملةٍ، مع زميلة عملٍ قديم، عادةً لا أجيب على المكالمات التليفونية، ولكني أجبتُ هذه المرة لعل المكالمة تحمل لي جديدًا، حدثتني عن طرقها الجديدة في صنع المربى لأطفالها، عظيمٌ.. هكذا أضفتُ لنفسي

خبرةً جديدةً عديمة الفائدة بالمرة.

قررتُ النزول، الجو حارٌّ، والشمس شديدةٌ، أمشي ببطءٍ.. حقيبتي ثقيلةٌ؛ لأني غبيٌّ. أخذتُ كل ما يمكن أن أفكر في احتمالية احتياجي إليه، زجاجة مياهٍ كبيرةً، كتابًا، لوحًا رقميًّا، قميصًا آخر، دخانًا، مفاتيح.. لماذا أحضرت كل هذه الأشياء الآن؟ لكي يزيد ألم كتفي ورقبتي، ويصبح النزول ذنبًا أُعاقب نفسي عليه طوال الطريق.

أتحرك كجثةٍ ضخمةٍ، لا أعرف أين أتجه.. أبحث عن رقم صالةٍ للألعاب الرياضية.. أسمع ضحكةً ساخرةً كبيرةً داخلي؛ فأنا غير قادرٍ على رفع قدمي من على الأرض، ولكني أفكر في الرياضة، اتصلتُ بالفعل بالصالة، وسألت عن النشاطات المقامة هناك، وسألت عن المواعيد والعنوان بالتفصيل، وتمنيتُ لهم نهارًا سعيدًا، وأغلقتُ الهاتف.

أواصلُ المشي كهيكلٍ خربٍ، الشوارع خاليةٌ.. امرأةٌ تقود درَّاجةً، ولدٌ يلعب مع كلبٍ، حرَّاس البنايات يجلسون بتراخٍ على كراسيهم.

أدخلُ مقهى، أدخنُ وأشربُ قهوةً، وأفكرُ فيما يمكنني أن أفعل.

تجلسُ فتاةٌ في مواجهتي في شرفة المقهى، لا يوجد غيرنا في الشرفة، تبدو طالبةً جامعيةً، تُخرجُ من حقيبتها أوراقًا ودفاترًا، تضع السماعات في أذنها، وتختلس النظر لي من حينٍ لآخر، هل أقوم وأجلس أمامها وأخبرها أني أقف على حافة العدم، وأني يجب أن أخطو عدة خطواتٍ تحول هذا العدم

إلى قصةٍ، ولكني لا أستطيعُ، وأن هذا يؤلمني، وأني لا أعرف كيف يمكن أن تمضي حياتي على هذا النحو؟ لكنها ما زالت شـابةً على كل هذا، دعها تستذكر دروسها. هل أقوم وأُخبرها بأني سألتُ نفسي إن كان تقبيلها الآن في هذه الشرفة شـديدة الحرارة يمكن أن يُغيِّر أي شيءٍ في زمني الساكن؟ هل أقوم وأجذبها من شَـعرها الأسود وأضرب رأسها في الحائط.. عسى أن تتغير حياتها وحياتي؟

لم أُقبِّلها، ولم أضرب رأسها في الحائط، وتركت حياتها تمضي دون تدخُّلٍ مني، وأكملتُ مسيري على حافة العدم. وفكرت أنه يجب أن يخطط الواحد جيـدًا لكيفية اقتحام العـدم، وأن يكون لدى المرء خطـطٌ طويلة الأجل لاستعمالها في هذه الأيام. بمناسبة طول الأجل.. بالأمس سقطتْ عيناي على جملةٍ مطبوعةٍ على علبة اللبن وأنا أنزلها من على شفتي "حليب طويل الأجـل"، بالتأكيد رأيتها كثيرًا مـن قبل، لكني لم أنتبه لها هكذا إلا الآن.. "طويل الأجـل"! من أين يجلبون تلك الثقة المطلقة في امتلاكهم لطول الأجل؟!

أعـرف أني لن أكـون طويل الأجل بأي حالٍ مـن الأحوال، كنتُ قد انتهيتُ ساعتها من آخر طقوسي الليلية قبل النوم، كنت مخمورًا، وشربتُ اللبن من أجل مدّ دمي بشيءٍ من الأوكسجين يساعده على مقاومة الكحول قليـلًا، قبـل أن أُصاب بانفجـارٍ في الكبد، أو في المـخ، أو في أيٍّ من تلك الأعضاء المؤهلة للانفجار.

ولكـن أثارتني تلك الثقة التي يعتمد عليهـا منتجو اللبن؛ كي يبيعوا لنـا منتجهم، ونحن نصدقهم، أو نتواطأُ جميعًـا على تصديق تلك الجملة البائسـة التي طُبعت على علبة الحليب، ونتناسى أننا حمقى، وأن ما نشربه ما هو إلا سائلٌ كيميائي أبيض وليس لبنًا. والآن أنا أفكر في خططٍ طويلة الأجل من أجل اقتحام العدم.

بعـد الحليب الذي ذكـرني بقصر أجلي، شربتُ ماءً كثـيرًا؛ كي أكمل الطقس الأخير.

يقولون إن أحد الصالحين كان في رحلةٍ للسـماء، وعرض عليه الملاك الذي رافقه في الرحلة خمرًا ولبنًا وماءً، واختار الرجل الصالح أن يشرب اللبن، فابتسـم له المـلاك، وأخبره أنه نجح في الاختبـار؛ إذ إن اللبن هو الأسـاس. لم أفهم لماذا كان اللبن هو الأسـاس، كان من الأولى أن يكون الماء هو الأسـاس، بالتأكيد كان من الأفضل ـطالمـا أنها رحلةٌـ أن يتزود المسـافر بشيءٍ من الخمر. لكن هكذا تكون اختيارات الآخرين، عجيبةً، ولكنها على الأقل تمنحنا الفرصة للسخرية منهم، وأنا عن نفسي قد شربتُ المشروبات الثلاثة، وشعرتُ بنفسي ثقيلًا، جاهزًا للسقوط.

عزيزي، هل سـترد على رسالتي؟ أرجو ذلك، حقيقة لا أعرف كيف سـيمكنك أن تحلَّ المسـألة، خطابٌ مرسـلٌ إليك من حافـة العدم، مليءٌ بالمجـازات ـالمجاز يا عزيزي ملاذُ الخائفـين الجبناء مثلي أنا الآنـ يطلب منـك أن تخبرني كيف يمكنني كتابة قصـةٍ كما لو كنتُ أنت كاتبها، ولكن

أنا مَن سـيكتبها، تصرَّف يا عزيزي، اجتهدْ قليـلًا، وأنا أعرف أنك قادرٌ على ذلك، فلم يكن اختياري لك قائمًا على فراغٍ.

في انتظارك.

وجبةٌ باردةٌ

كان القطار فارغًا إلى حدٍّ ما، لذا كان جسدي يهتز بشدةٍ مع الحركة والضجيج، طالما اعتقدتُ أن الزحام يخفف من اهتزاز جسدي داخل المواصلات. لم أعرف إن كان خلوُّ القطار علامةً جيدةً أم لا، في الحقيقة لم أعد أخرج كثيرًا منذ أن تركت العمل، لم أشعرْ أن هناك ما يدعو للتجول في المدينة، اكتفيتُ بالمشاوير الضرورية، ورحتُ أتحرك فقط على قدمي في دائرةٍ مركزها بيتي، وتتقلص باستمرارٍ، ربما صرتُ عجوزًا، وربما ببساطةٍ فقدتُ الرغبة في الحركة في الشوارع المزدحمة القذرة بعد أن تركتُ العمل. كنتُ أُتابع المشاهد من النافذة دون تركيزٍ، الشمس فقدتْ حدَّتها منذ فترةٍ، وصارت أشعتها الداخلة أكثر حنوًّا، دائمًا ما أحببتُ هذا الوقت، وكرهتُ

ساعة الغروب. أحببتُ الليل والنهار، ولكني كرهتُ الشروق؛ لأنه يذكرني بضرورة النوم أو بدء العمل، والغروب يجعل كل الألوان شاحبة.

تسليتُ بالشمس وبالمباني الرمادية التي يمر عليها القطار، ولكن التوتر كان يسيطر عليَّ أكثر كلما اقتربت المحطة التي يتوجب عليَّ فيها أن أغادر.

أنا ذاهبٌ لمقابلة عملٍ، بعد فترة توقفٍ طويلةٍ، شعرتُ فيها بضرورة عدم فعلِ أي شيءٍ، ولكن بدأتْ مدخراتي في النفاد، وكان لا بدَّ لي من العودة مرةً أخرى.

في الحقيقة، حاولتُ البحث عن عملٍ بالطرق المعاصرة التي يستعملها الجميع الآن، أرسلتُ مؤهلاتي لعددٍ من المؤسسات، وأيضًا دُعيت لإجراء عددٍ من المقابلات مع مسئولي التشغيل في بعضها، ولكني فشلتُ بجدارةٍ، كنتُ عاجزًا تمامًا عن تسويق نفسي بالشكل الذي يريدون سماعه، أشعرتني تلك المقابلات بالعبث، لا بدَّ لي أن أسرد لِمَن أمامي قدراتٍ خرافيةً أمتلكها، وتاريخًا مليئًا بالإنجازات، وجميعنا يعرف أن هذا غير حقيقيٍّ، ولا يحتاج أي عملٍ بالأساس لمثل هذا القدرات الخارقة. لكن لا بدَّ من ملء هذا الوقت المخصص للمقابلة بالحديث المنمق دون توقفٍ حتى يشعر الجميع بالانتفاخ.

كنتُ أوجزُ تاريخي الوظيفي ببضع جملٍ لا تُشبع مسئولي التوظيف، ظانًا أن ما فعلته يمكن الاطلاع عليه بشيءٍ بسيطٍ من البحث أو المتابعة، لكن لم يكن الأمر يسير على هذا النحو لا بالنسبة لهم، ولا بالنسبة لي، فتوقفتُ عن المحاولة تمامًا.

منذ أيامٍ تلقيتُ مكالمةً من أحد الاصدقاء القدامى، أخبرني أنهم بحاجةٍ لِمَن هم في مِثل خبراتي لشغل وظيفةٍ بالشركة التي يعمل بها. كنا نعمل في المجال نفسه، ولكن في مؤسساتٍ مختلفةٍ، تعارفنا في أحد المؤتمرات التي عادةً ما كانت تجمع ممثلين للشركات والمؤسسات كي يعرضوا آخر ما تم إنجازه من مشروعاتٍ تغير وجه المدينة، زرته أيضًا عدَّة مراتٍ في مقر عمله، لكني كرهتُ المكان منذ زيارتي الأولى، كان الجميع على مكاتبهم صامتين، ينظرون بتركيزٍ شديدٍ إلى ما على سطح مكاتبهم من أوراقٍ أو شاشاتٍ بشكلٍ بدا لي مبالغًا فيه، لم يقنعني هذا بتفوقهم بقدر ما أشعرني بخوفهم من رئيس المؤسسة المشهور بمعرفة وتتبع كل تفاصيل العمل بما في ذلك تفاصيلهم الشخصية؛ لاعتباره تلك التفاصيل تؤثر على العمل، وبالتالي فمن حقه معرفتها ومحاسبتهم على أي تقصيرٍ يحدث، وبقسوةٍ شديدةٍ أحيانًا.

الآن أنا في طريقي لمقابلة رئيس المؤسسة، كما فهمتُ من الصديق ستكون المقابلة عبارةً عن تعارفٍ بسيطٍ، وتعريفي بما يجب القيام به، والأجر المقرر. الطريقة الكلاسيكية التي طالما وجدتُ بها أعمالي السابقة. ترددت قبل الموافقة على العمل في مكانٍ لا أحتفظ له بذكرى طيبةٍ، لكن شبح الإفلاس دفعني للقبول.

كان الصديق في انتظاري على باب المؤسسة العريقة، المبنى كان خاليًا رغم أن ساعة انتهاء العمل الرسمية لم تحنْ بعدُ. لم يتبادل الصديق معي أكثر من عباراتٍ بسيطةٍ، ثم سكت وهو يقودني عبر أروقة المبنى الصامت لغرفة الرئيس.

طرق الباب برفقٍ، ثم فتحه ودخلنا، كانت الغرفة ضخمةً، وكان سقفها عاليًا، وأرضيتها خشبيةً، وجدرانها مكسوةً بأرفف الكتب، وفي نهايتها يقبع الرئيس خلف مكتبٍ خشبيٍّ ضخمٍ، مليءٍ بالنقوش التي لم أستطع تبين أشكالها. كانت الغرفة شبه مظلمةٍ على الرغم من النافذة الزجاجية الضخمة التي تحتل نصف الحائط تقريبًا على يسار المكتب، لكنها لم تكن تساعد في إنارة المكان بالشكل المتوقع بقدر ما بدت كلوحةٍ مرسومةٍ، والغريب أن الوقت لم يكن ليلًا بعد. كان الرئيس قد أشعل مصباح المكتب الذي أنار فقط نصف وجهه الأسفل، وبقي نصف وجهه الأعلى مبهمًا في ظلمة المكان، كان يرتدي سترةً سوداء مغلقةً حتى الرقبة بدت لي تنتمي إلى عهدٍ قديمٍ، أحسستُ أني في أحد الأديرة القديمة رغم أني لم أزر إحداها من قبل، لكن الغرفة وملابس الرئيس أغرقتني في هذا الشعور، وبدأت في التعرق.

عادةً أنا كثير العرق، وكان الأمر يزعجني قديمًا، لكني مع الوقت تعايشت مع ذلك. عادةً أمضي وملابسي نصف مبلولةٍ نتيجةً لتعرقي الدائم، لكن أمام رئيس المؤسسة بدأتُ أشعرُ بأسوأ أنواع العرق، العرق البارد، ذلك الذي يتجمع تحت إبطي، ويسيل في خطوطٍ حتى بطني، عرقٌ يجعلني أشعر بالارتعاش، والخوف رغم أنه لم يحدث شيءٌ بعدُ.

جلستُ على مقعدٍ وُضِعَ مواجهًا لمكتب الرئيس، وجلس الصديق صامتًا على مقعدٍ آخر بجوار المكتب، غارقًا في ضباب الغرفة.

دام الصمت، لم أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله، فكرت أن أبدأ بتعريف نفسي، طالما ظل الصديق صامتًا، بدأتُ بصوتٍ مختنقٍ أُعرِّف بنفسي، قاطعني

الرئيس قائلًا بصوتٍ باردٍ: "أعرف مَن أنت. سبق أن تحادثنا هاتفيًا مرةً واحدةً قبل تسع سنواتٍ، تحديدًا في الثالث عشر من فبراير.. الثالثة والنصف عصرًا، وكانت نتيجة المحادثة أن قررت قطع أي شكلٍ من أشكال التعاون مع مؤسسة توظف أمثالك".

صدمني صوته البارد، وتذكره الدقيق لتلك المحادثة التي تذكرتها أنا أيضًا وأنا أستمع له، كانت مكالمةً بهدف السخرية منه في الحقيقة، كانت مؤسستي قد فازتْ بإحدى الصفقات التي تصارع عليها عددٌ من المؤسسات والشركات، والأعنف كانت مؤسسة الرئيس، لذا قمتُ بالاتصال به فور أن علمتُ بنبأ فوزنا، وعرَّفتُهُ بنفسي، وأخبرته أني أتصل به لدعوته إلى حفلِ تقيمه المؤسسة للاحتفال بفوزنا بالصفقة، سمعتُ ساعتها ردًّا مبهمًا، وبعدها أقفل الخط، تذكرتُ ساعتها أني انفجرتُ في الضحك مع زملائي سخريةً منه، لكن كان ذلك منذ زمنٍ طويلٍ، قبل تسع سنواتٍ كما ذكر، ولم أعرف أبدًا أن تلك المكالمة كنت سببًا في قطع التعاون بين المؤسستين.

بقي الصديق صامتًا، ولم أعرف سبب دعوته لي لتلك المقابلة، هل يسخر مني؟ هل أحضرني لحاجة مديره للتسلية؟ أم يساعده في الانتقام مني نتيجة مكالمةٍ تليفونيةٍ تافهةٍ حدثت قبل سنوات؟ ولماذا تأخر كل هذا الوقت لينتقم، سمعتُ أن الانتقام وجبةٌ تُقدَّم باردةً، ولكني لم أُعدَّها لأحدٍ من قبل، وكنت حريصًا ألَّا يحدث مني ما يجعل أي أحدٍ يجهزها لي، أيستحق الأمر كل هذا؟ ولماذا سيقوم الآن بتوظيف أمثالي؟

العرق لا يزال يسيل من إبطيّ، ونوبات الارتعاش بدأت في التسارع

ومحاولاتي في كتمها قاربت على الفشل، وشعرتُ بالرغبة في التبوُّل، فكرت أن أقف أمام مكتب الرئيس وأفك بنطالي وأتبول أمامه، وأنهي تلك المهزلة، لكنني لم أكن أبدًا من أصحاب ردود الأفعال العنيفة.

فجأةً، تحدث الصوت البارد ثانيةً وهو يُلقي أمامي ورقةً لم أتبين ما فيها: "نحتاج لجرد هذا المنزل تمهيدًا لاتخاذ قرارٍ بشأنه، إمَّا بهدمه وإما بالإبقاء عليه، المنزل ليس بعيدًا، أمامك ثلاث ساعاتٍ تبدأ الآن للقيام بالمهمة، إليك العنوان، يمكنك الانصراف، وسأكون هنا في انتظار تقريرك، وبعدها نتحدث".

تناولتُ الورقة، ونظرتُ للصديق الذي بقي جالسًا، محدقًا في الفراغ كأنه لا يسمع ما يدور، ازدادت حاجتي للتبول، والخروج من الغرفة، وتبخرت رغبتي في التبول على وجه رئيس المؤسسة، كنت فقط أريد أن أبتعد عن صاحب الصوت البارد.

خرجتُ مسرعًا من المؤسسة، كان المساء قد حل، الورقة في يدي، فكرتُ في البداية أن أمزقها وأطوي صفحة الموضوع بأكمله، وأن أقطع علاقتي مع الصديق، لكنَّ شيئًا ما أوقفني، لا أعرف إن كان حاجتي للعمل، أم رغبة مني في قبول تحدي الرئيس ذي الصوت البارد، أم هو العمل داخل المؤسسة ومحاولة رد الصفعة للرجل العجوز.

طالعتُ العنوان لم يكن المكان بعيدًا، ومهمة الجرد هي عملٌ تافهٌ بالأساس، أحسستُ أن في الأمر خدعةً أو لعبةً ما، لكن هل سيغير ذلك شيئًا؟ لا أظن، وبدأتُ في التحرك في اتجاه البيت المشار إليه.

كان العقار يقع وسطَ شبكةٍ من الشوارع الضيقة، ويشبه مكعبًا كبيرًا من دورين تقريبًا، بنوافذ بدتْ من الخارج كأنها ثقوبٌ وُزِّعت بشكلٍ عشوائيٍّ بحيث لا يُفهم ما ينتمي منها للدور الأول وما ينتمي للدور الثاني.

كان المفتاح موجودًا بالفعل بثقب الباب. عجيبٌ أن يبقى مكانٌ مثل هذا مغلقًا وسط تلك الشوارع الضيقة، في الأغلب كان لا بدَّ أن يتحوَّل لمأوى للمشردين ومدمني المخدرات الرخيصة، لكن لا يبدو أن أحدًا اقترب من العقار منذ وقتٍ ليس بقصيرٍ، فتحريك المفتاح احتاج لبعض الجهد، وانفتح الباب.

لم أرَ شيئًا في البداية، تحسست الجدار على يميني، فوجدتُ مفتاح الإضاءة، ضغطتُ عليه، ليشتعل ضوءٌ صغيرٌ، أظهر أن الباب ينفتح على ممرٍّ ضيقٍ، وهناك سلمٌ حديديٌّ أعلاه بابٌ مغلقٌ، والمصباح يقبع داخل تجويف السلم، أغلقتُ الباب خلفي، وبدأتُ في صعود السلم الحديدي الصدئ، أحتاج فتح الباب الثاني أعلى السلم إلى مجهودٍ أكبر، ولكنه انفتح في النهاية، كان يؤدي إلى صالةٍ واسعةٍ بها ثلاثة أبوابٍ شبه مغلقةٍ، خلف البابين الأولين، كانت هناك غرفٌ تبدو شديدة الاتساع بالنسبة لحجم العقار بأكمله من الخارج، الباب الثالث كان مغلقًا، ولكنَّ مفتاحه كان معلقًا في مقبض الباب، فتحته لأجد ممرًّا ضيقًا مظلمًا، أشعلتُ قداحتي، وتحسستُ الحائط حتى وصلتُ إلى ما يشبه درجة سلَّم، صعدتُ الدرجات أمامي، وبدأتُ أشعر بشيءٍ من الخوف، والرغبة في التبول مرةً أخرى، لم أفهم لماذا الخوف، دخلت مبانيَ أكثر ظلمةً وقذارةً من هذا، لكن هنا كان ثمة شيءٌ مختلفٌ لم أستطع

تحديده، ربما عدم قدرتي على وضع تصورٍ لشكل المكان.

يفترض بحسب مظهر البناء الخارجي أن ينتهي هذا السلم بفتحةٍ في السقف، تُفضي إلى سطح المكان، لكن انتهى السلم بممرٍّ طويلٍ آخر، كان بوسعي من بدايته أن أتبين أن بمنتصفه توجد نافذةٌ، وصلتُ إليها، رأيتُ من خلالها الشارع، رفعت يدي علَّ أحد المارة أن ينتبه إليَّ، لكن لم يرفع أحدٌ رأسَهُ، رغم أن ارتفاع النافذة لم يكن يعلو رؤوس العابرين في الشارع كثيرًا، وكان هذا غريبًا بعد الدرجات التي صعدتها رغم أني دخلتُ من مستوى الشارع إلى البيت، أكملت الممر الذي انفتح على صالةٍ واسعةٍ بها ثلاثة أبوابٍ شبه مغلقةٍ، كانت مهلة الثلاث ساعاتٍ التي حددها الرئيس تمضي بسرعة، وأصابني الشك هل هذه نفس الصالة التي مررتُ بها من قبل، شعرتُ أني في متاهةٍ، فتحتُ الباب الأول الذي مررت به، وراءه كانت غرفةٌ متسعةٌ تُشبه الغرف الأولى، وكذلك كانت الثانية، الغرفة الثالثة كانت شديدة الضيق، بها نافذةٌ مستطيلةٌ بطول الحائط تقريبًا، فتحةٌ تدعو للقفز، لكنها تطل على أرضٍ خاليةٍ شديدة الاتساع والظلمة، وبدت أنوار الشارع بعيدةً، صرختُ على المارة الذين صاروا بعيدين طالبًا النجدة، لكنَّ أحدًا لم يستمع إليَّ.

عشاءٌ خاصٌّ

وقع علينا الاختيار، جاءنا الخبر صباح اليوم، أحد الرجال المسلحين طرق الباب بشدةٍ، فتحت له أمي، فحَّ في وجهها: "سيتعشى الديكتاتور عندكم الليلة". شهقت أمي واصفر وجهها، واستدارت بعض أن انصرف المسلح، وكررت جملته لنا جميعًا.

في السنوات الأولى للحرب، كان استعمال كلمة الديكتاتور كفيلًا بموت مَن أطلقها وكثيرًا عدة أشخاصٍ حوله، لكن بمرور الوقت بدأ حاكم البلاد في استعمالها في الإشارة لنفسه قائلًا إنه يشرفه أن يكون ديكتاتورًا في مواجهة أعداء البلاد والخونة، وهكذا بدأ الناس يستعملونها في الإشارة إليه،

بل أصبح مثيرًا للريبة مَن لا يستعمل الكلمة عند الإشارة إليه.

مساحةُ ما كان الديكتاتور يسيطر عليه بالفعل، صارت مساحةً ضئيلةً تزيد أحيانًا، وتقلُّ أحيانًا، لكنه أحكم سيطرته على الجزء المتبقي له، وصار يدعوها بالأرض المحررة، في الحقيقة كانت كل البلاد أراضيَ محررةً، فكل فريقٍ استولى على مساحةٍ سماها أرضًا محررةً، وكنا نحن مسجونين في أراضي الديكتاتور المحررة، وغيرنا سجناء في أراضٍ أخرى محررةٍ أيضًا.

في السنة الأخيرة، بدأ الديكتاتور في تقليد "عشاء مع مواطن"، حيث قرر من باب التضامن مع مواطنيه أن يتم اختيار أُسرةٍ بشكلٍ عشوائيٍّ؛ كي يحل عليهم ضيفًا على العشاء، ويأكل معهم نفس الطعام الذي يتناولونه دون ترتيباتٍ خاصةٍ، هكذا صرحتْ دوائر التليفزيون المحلية المتبقية تحت سيطرته، وقامت أيضًا بنقل وصول الديكتاتور إلى المنزل الذي تم اختياره، ومقاطع له وهو يتبادل المزاح مع أفراد العائلة، لكنها كانت مقاطع قصيرةً وتُبثُّ بسرعةٍ؛ لأن وجوه العائلات لم تكن تبدو ضاحكةً بقدر ما كانت متشنجةً، كأنهم تحت تأثيرِ مرضيٍّ ما، وفي نهاية العشاء كان الحاكم يُهدي أفراد الأسرة شيئًا ما، تافهًا في الأغلب، زجاجة زيتٍ، عدة كيلو جرامات من الأرز أو العدس، علامةً على تضامن الجميع حتى عبور "الأزمة"، كما كانوا يسمون ما يحدث في البلاد في الإذاعات الرسمية.

لكن بعد عدة عشاءاتٍ، صارت جائزة الديكتاتور أحيانًا رصاصةً في رأس أحد أفراد الأُسرة المختارة، أو تفجير البيت وهم بداخله بدعوى

أن العائلة كانت تحاول اغتياله، وهكذا أصبح "عشاء مع مواطن" اختيارًا يشبه القدر، لا يمكن لأحدٍ رفضه، ولا يمكن لأحدٍ معرفة كيف سينتهي الأمر، لعنةٌ تعرف بأمر مجيئها أول اليوم، ولا بدَّ من البقاء عاجزًا حتى نهايته، إن قُدِّر لك البقاء.

بعد كل ما حدث، لم يعد هناك مؤيدون أو معارضون، صار هناك موجودون، أشباحٌ تتحرك في المساحة الممكنة سواء تحت حكم الديكتاتور، أو في باقي المناطق. كان الجميع يحاولون تثبيت درجة الرعب، الاعتياد عليه، لذا كانت مسألة "عشاء مع مواطن" مخيفةً؛ لأنها بدأتْ تعني أن عائلةً جديدةً ستنسحب من الوجود ميتةً من الرعب.

لم أعرف ما الذي يمكنني فعله، صرتُ أدور في الخرائب حول البيت، وكلما رجعتُ للبيت أشاهد وجه أمي الأصفر وهي تحدق في إناءٍ على النار، وتقلب السائل بداخله بشكلٍ آليٍّ، ثم ترفع وجهها ناظرةً إليَّ وفمها مفتوحٌ، ثم تعود للتحديق في السائل الساخن.

جاء لبيتنا يومها اثنان من أخوالي المتوفين، في الفترة الأخيرة كثُرت زيارات الأموات، في البداية تعامل معها الجميع على أنها علاماتٌ سماويةٌ، وإشاراتٌ إلى أن هناك نهايةً ما ستأتي، لكن بعد قليلٍ أصبح الأمر عاديًّا، أشخاصٌ ماتوا أو قُتلوا قبل الحرب، وبعدها يتجولون بجوار منازلهم المهدمة، أو يجلسون وسط عائلاتهم في أماكنهم المفضلة، يتحدثون أحيانًا، وفي الأغلب لا. أبي مثلًا زارنا عدة مراتٍ، وكان قد مات قبل الحرب،

وسمعتُ أمي تشكر الرب كثيرًا أنه لم يشهد كل هذا الخراب، كان يجلس في مكانه القديم، على الأرض هذه المرة؛ لأننا بعنا الكنبة التي كان يفضل الجلوس عليها، ينظر لنا أحيانًا، أو يهز رأسه كأنه يتابع ما نقول بطريقته التي نعرف أنها تعني أنه لا يهتم بما نقول، ثم يختفي كما ظهر، وهكذا كانت ظهورات الأموات في حياتنا، اعتاد عليها الجميع، ولم تصبح علامةً على أي شيءٍ.

الخال الأول وجدته على السُّلَّم، في إحدى مرات خروجي ودوراني حول البيت، كان يرتدي ملابس سجن مهلهلةً، لم أعرف أنه دخل السجن قبل موته، وكان يبكي بحرقةٍ بجوار الباب، لم أسأله عن سبب بكائه، ولا عن ملابسه، حسدته في سري لامتلاكه دموعًا، فقد نفدت الدموع من المتبقين، وعبرته وأكملت طريقي للخارج.

كنتُ أحاول أن أبحث عن معونةٍ، لا أعرف أي معونةٍ يمكن أن تفيد في حالنا هذه، قطعة سلاح مثلًا؟ لا أعرف كيف أستعملها، ولا كيف أحصل عليها، وليست لديَّ القدرة على رفعها إذا وُجدتْ أيضًا. رحتُ أدوِّر حول الخرائب، ورجعتُ البيت، أمي لا تزال تُقلِّب السائل في الإناء ووجهها يزداد اصفرارًا، أخرجُ من البيت، فكرتُ أن أذهب لأطلب المساعدة من شباب الملهى، شبابٍ ضخام مفتولي العضلات، مهمتهم حماية المكان من الهجمات المفاجئة، كان الملهى يحتل أول دورٍ في عمارةٍ كانت ضخمةً وتهدمت بفعل القذائف، لكن بقي دورها الأول بحالةٍ جيدةٍ، فحولوه

إلى ملهى للموظفين المتوسطين في إدارة المدينة، والكبار كانوا يمضون أوقاتهم في صحبة الرئيس.

وقفتُ بالقرب منهم، ولم أعرف ما الذي يُمكن أن أقوله، لاحظوا وجودي، فتوقفوا عن ضحكهم الهيستيري للحظاتٍ، عرفني أحدهم، انفجر ضاحكًا من جديدٍ، وأشار إليَّ صارخًا: "المواطن المختار"، لم أعرف كيف أرد، فقط صرتُ أردد بصوتٍ مرتعشٍ: "ساعدونا.. ساعدونا". التقط أحدهم حجرًا من الأرض، وقذفني به، وقال: "سنساعدك لا تخف"، وتابع الباقون قذفي بالحجارة.

رجعتُ إلى البيت، أمي ما تزال تُقلِّب في الإناء، صرختُ فيها: "ماذا تفعلين؟"، رفعتْ نفس الوجه الأصفر، وعادت للإناء. في الصالة كان يجلس خالٌ ميتٌ آخر، قُتل في بدايات الحرب، كان يرتدي ملابس مزركشةً نظيفةً، ويتحدث دون صوتٍ، كانت شفتاه تتحركان ويهز رأسه من حينٍ لآخر، كأنما يتابع الحديث مع شخصٍ آخر، كان المشهد أشبه بمشاهدة تلفازٍ بلا صوتٍ، فرحتُ بملابسه المزركشة، وجلستُ على السلم في الظلام.

لم أفهم إن كنتُ قد نمتُ، لكن ما حدث بعدها كان سريعًا، رجالٌ مسلحون ملأوا سلمنا المتهدم، رأيت الديكتاتور بجسده الطويل النحيف يدخل بابنا وتصحبه زوجته الحسناء، أمي كانت صفراء، أمام منضدةٍ عليها ثلاثة أطباقٍ صدئةٍ، بداخلها حساءٌ أصفر ثقيلٌ، وضع الحاكم لقمةً في فمه، ثم انتصب قائمًا وخرج مسرعًا، تبعته الحسناء، والرجال المسلحون،

جذبني أحدهم، نزلتُ معهم، أشار له الديكتاتور وهو يركب سيارته بأن يتركني، وقفتُ مشلولًا أنظر له وهو يقف بين عربته وبابها المفتوح، أخرج مسدسه الصغير الشـهير وصوبه عليَّ، لم ألحظ المسدس بقدر ما لاحظت نظرته الثلجية المخيفة، كنت مشـلولًا، اندلعت أبواق سياراتٍ فجأةً تنبه الديكتاتور أنه قد سـد الطريق بعربته، تعالت الأبواق بشـدةٍ، ويبدو أنها أربكته قليلًا، سـمعتُ سـبابه، وصوت إطلاق نار، وباب سـيارةٍ يُغلق، وخفَّت ضجة أبواق السيارات قليلًا.

جاذبية

لا يمكنني تحديد كيف بدأ الأمر. أحاول الآن أن أذكر النقطة التي بدأت عندها الأمور تتعقد، لكن يبدو ذلك صعبًا. ربما بدأ الأمر برغبتي الشخصية ودون أي تأثيرٍ خارجيٍّ. كنتُ أريد إقامة علاقةٍ مع حيوانٍ، ربما هي رغبةٌ هاربةٌ من أيام الطفولة، حيث كنتُ أتمنى أن أقتني حيوانًا، لكن ظل ذلك أمرًا مجردًا؛ لأن ذلك الحيوان الذي كنتُ أرغب في اقتنائه، كان يتغير كل فترةٍ، أغلب الظن أن الأمر بدأ مع الحصان.

كنتُ أريد حصانًا، يعرف صفيري، أمتطيه بقفزةٍ خفيفةٍ، ثم أنطلق به كالسهم، هكذا أمضيتُ ليلةً أتوسل إلى الرب أن أستيقظ صباحًا

لأجد حصانًا أسـود مربوطًا في سريري، استيقظتُ ولم أجد شيئًا، حزنتُ مـن الرب، فقد كنـتُ واثقًا من إجابـة طلبي، وهكذا بـدأت علاقتنا في الفتور.

لكن النقطة الفاصلة في علاقتي بالخيول، كانت عندما صدمني حصانٌ، كنَّا على شاطئ البحر، في منطقةٍ يشتهر سكانها بامتطاء الأحصنة، وطلبتُ من أبي أن يستأجر لنا واحدًا، وافق بطريقته التي تعني أنه لن يفعل شيئًا، ظللت مشدودًا لمتابعة الشاب الذي يجري بحصانه على الشاطئ، يدور به في دوائر واسعةٍ، يخترق به المياه حينًا، ثم يثير رمال الشاطئ، لم أشعر بشيءٍ، فقـط كنت مُلقًى على الأرض، بين النوم واليقظـة، وما أتذكره أني رأيتُ بطن الحصان فوقي، لحظتها أدركتُ كم هو ضخمٌ، كانت بطنًا هائلةً مليئةً بالشَّعر المتلبد، وبعدها لم أشعر بشيءٍ، يبدو أني فقدتُ الوعي.

خلفـتْ تلك الحادثـة جرحًا صغيرًا جدًّا في قدمي، تعجبتُ سـاعتها كيف يسـبب الاصطدام بمثل هذا الحيوان الضخـم، جرحًا تافهًا كهذا، التـأم الجرح بعد أيامٍ، لكن ما يزال أثره باقيًا في قدمي بينما انتهت علاقتي بالحصان، بقى شيء من الإعجاب لكن نفدت الرغبة.

أحببتُ الكلب أيضًا، بشـكلٍ نظريٍّ بحـتٍ، ولم أُفاتح أحدًا في ذلك الأمـر، لا الـرب ولا غـيره، ولم تفلح تلك العلاقة النظريـة في دفعي من الاقـتراب من ذلك الكائن المعروف بإخلاصه، ولا في تخفيف خوفي من الكلاب العاوية في الشارع، حتى مزق كلبٌ بنطالي صباحَ يومٍ استيقظت

فيه مشرقًا على غير العادة، وكان ذلك بهدوءٍ، بلا نباحٍ أو ضجةٍ، أحسستُ أن في الأمر رسالةً ما، وحافظتُ من ساعتها على مساحةٍ كافيةٍ بيني وبين أي كلبٍ.

تقلبتُ بعد ذلك في علاقاتٍ سريعةٍ، من ضخامة الفيل ووجهه الطيب، وذاكرته القوية وقسوته الخفية، إلى أعين النمر، ثم كسل الأسد واتكاله الجميل، وانشغلت بالذئب فترةً قصيرةً، لكن لم يتطور الأمر لعلاقةٍ يمكن الاعتداد بها.

لم تدخل الطيور بأنواعها في دائرة اهتمامي، ربما لخوفي من الطيران، أو لولعي بالمشي، لكن الغيرة كانت أول الصلة بيني وبين الغراب.

كنتُ زوجًا غيورًا، أفسدتُ الكثير من السهرات والرحلات بتحكماتي في زوجتي، كانت تعليقاتي، وأوامري، ووصاياي كثيرة، بخصوص عملها وملابسها وزملائها وطريقة حديثها، كانت تلك التفاصيل بالنسبة لي هامةً، ولا تقبل الكثير من النقاش.

وسمعتُ ذات مرةٍ في حديثٍ بين أصدقاء كنتُ جالسًا بجوارهم بالصدفة في أحد المقاهي، أن الغربان لا تقبل الخيانة الزوجية، وإذا اكتشف ذكرٌ أن أنثاه تخونه مع ذكرٍ آخر، تجتمع ذكور السرب على قتل العشيق والزوجة الخائنة.

جذبني هذا، وأحسستُ أن الأمر إذَنْ ليس قصورًا مني، أو بسبب نشأتي،

أو كيف أرى الأخلاق، لكن الأمر في ضوء الغراب يبدو بيولوجيًّا يرتبط بالطبيعة أكثر من ارتباطه بظروفي الخاصة. فأحببتُ ساعتها الغراب.

لكـن ما وطد علاقتنا أكثر، يوم اسـتيقظتُ على صوت صياح غربانٍ كثيرةٍ، عادةً ما أسـمع صوت الغـراب في الصباح، لكنه صياح غرابٍ أو اثنين على الأرجح يبحثان عن شيءٍ يخصهما، لكن في هذا اليوم كان الصوت لغربانٍ كثيرةٍ، خرجـتُ إلى الشرفة، وبالفعل كانت مجموعةً من الغربان، تطيرُ في دوائر واسعةٍ مركزها البناية التي أعيش بها، تروح وتجيءُ بقلقٍ، لم أفهم في البداية سبب تلك الجلبة وهذا الإصرار على البقاء في تلك الدائرة، استمر الوضع لساعاتٍ، إلى أن قررت البقاء في الشرفة والمراقبة كي أفهم سبب ما يحدث.

بعد قليلٍ، رأيت أن هناك غرابًا ميتًا محشورًا بين أغصان الشجرة الضخمة أمـام منزلي، وزمـلاؤه يحاولون تخليصه من الأغصـان، كي يجدوا له قبرًا مناسبًا، كنتُ أعرفُ حكاية أن الغراب هو مَن علَّم الإنسان حفر القبور، وكنـتُ أعرفُ أيضًا أن الغـراب يدفن موتاه، لكن لم أكن أعرفُ أن هناك إصرارًا على الوفاء بحق الزميل الميت في أن يدفن.

جمعتُ سـاعتها كل عصي المكانس الموجودة في البيت وربطتها واحدةً تلو الأخرى، حتى تمكنت من هز أغصان الشجرة المتشابكة، إلى أن سقط الغراب الميت على الأرض، بعد قليلٍ رأيت ثلاثة غربانٍ يحملون فيما بينهم فقيدهم ويطيرون بعيدًا. دمعتْ عيناىَ قليلًا، وقررتُ أن أتقرب أكثر من هذا الكائن الجميل.

بهدوءٍ بدأتُ أعمل على تصفية أفكاري من كل الأفكار الشائعة عن الغراب والخراب، وكونه نذير شؤمٍ. كنتُ أرى الغراب يومًا بعد يومٍ، كائنًا صادقًا، واقعيًّا، أبعد نفسه عن سخافات البشر فلم يتملقهم، وأبعدهم عنه بحكايات الشؤم والخراب التي اخترعوها بأنفسهم، فلم يحاول أن يثبت لهم عكس ذلك.

حاولتُ التقرب منه أكثر، رحتُ أضع طعامًا على سور شرفتي قبل أن أنام، وفي الصباح كنتُ أستيقظ على جلبة أصوات العصافير التي تتخاطف ما وضعته من طعامٍ، لكن لم أرَ غرابًا يقترب، بدلتُ أنواع الطعام، ورحتُ أستيقظ قبل شروقِ الشمس، وأظل جالسًا في الشرفة لأرى إن كان سيأتي أو لا.

تسبب اختلاف مواعيد نومي، في إثارة غضب زوجتي، فنومي المبكر جدًّا، جعلني أرفض تلبية دعوات الخروج والسهر مع الأصدقاء، وأيضًا استقبالهم في البيت، كان لديَّ التزامٌ تجاه محاولاتي في التقرب، بدا لي أكثر لذةً من الجلوس وتبادل أحاديث فارغةٍ مع أصدقاء بدوا لي جميعًا مملين، ولم أعد أرى الأطفال تقريبًا.

كان هدفي من البداية أن أتحسس غرابًا يأتي لي بمفرده، لم أكن أريد بالطبع أن أصطاد واحدًا، ولا أن أنصب له فخًّا، كنتُ أريده أن يأتي لعندي بإرداته، وكنتُ على يقين أن هذا سيحدث مهما طال الوقت.

تخليتُ عن مكان المراقب خلف باب الشرفة، وجلستُ في الشرفة

ووضعت الطعام في حجري حبوبًا، حشراتٍ ميتةً، وبقايا من طعام المنزل. في البدايـة لم يحدث شيءٌ، اقتربت العصافير، والحمام، لكن الغربان ظلت تطوف حول المنزل دون أن تقترب من الشرفة.

ذات شروقٍ، وكان النعاس يغلبني، فتحت عينيّ بصعوبةٍ، لم أستطيع إدراك ما حدث، ما استطعت رؤيته، كان غرابًا يطير في اتجاه وجهي مباشرةً، لم أملك الوقت كي أتفاداه، لم يصطدم بوجهي، لكني أحسستُ بدقة مسمارٍ قويةٍ على رأسي، ثم ابتعد الغراب.

حالما اسـتوعبتُ ما حدث، كان الدم قد بـدأ في الزحف على وجهي، لم أعرف لماذا شـعرتُ حينها بالسـعادة، كأن ثمة شيئًا جديدًا سيبدأ، فقد تم تعميدي.

في اليوم التالي، خرجتُ كالعادة للشرفة، وقبل أن أضبط جلستي، حط غرابٌ على سور الشرفة، ثم تقافز بهدوءٍ وجلس على فخذي، وراح يلتقط الطعام من يدي بهدوءٍ، كنتُ مبهورًا وأنا أتحسـس ريش الغراب الأسود اللامع، وأطرافه الرمادية. أنهى الغراب طعامه، ثم طار بهدوءٍ.

تكرر الأمر في الأيام التالية، ثم جاء غرابان، ثم ثلاثة، وبالتدريج أصبح طبيعيًّـا أن تمتلئ شُرفتي بالغربان، كنت منتشـيًا في هذه الفترة، ولـم أُلقِ بالًا لصراخ زوجتي المتكرر حول رائحتي التي أصبحت لا تُطاق، ورائحة البيت التي أصبحت قذرةً كما وصفتْها.

بالتدريج أيضًا بدأ الجيران ينظرون إليَّ بشكلٍ غريبٍ، كانوا ينظرون إليَّ بخوفٍ، لم أهتم بمعرفة سبب ذلك الخوف، هل هو الجنون، أم أني أصبحتُ مصدر شؤمٍ لهم، كما يفكرون في أصدقائي الغربان.

في تلك الفترة، حدث تطوران بشكلٍ متتابعٍ، الأول أن الغربان بدأت تحط عليَّ في أي مكانٍ، المرة الأولى كنت بصحبة زوجتي وطفلي، وهبط غرابٌ من السماء على كتفي مباشرةً، لم تفهم زوجتي ما يحدث، ولكنها بدأت في الصراخ كالمجنونة، وارتعب الطفل، ظلتْ تصرخ وتقول إن الغراب كان سيقتلع عينها، وإني مجنون، وإن جنوني هذا سيدمر كل شيءٍ. ظللت هادئًا، أقنعت الناس الذين تجمعوا حولنا أن كل شيءٍ بخيرٍ، وأن أعصاب زوجتي ضعيفةٌ بعض الشيء.

لم أفهم لماذا ضايقهم الأمر؛ لأن الأمر لم يقتصر على زوجتي، فقد طردتُ من عملي بعد أن كسرت الغربان نافذة حجرة مكتبي المتربة بالمؤسسة، وجاءت لتستريح على مكتبي، هاج زملائي في العمل، وحاولوا أن يضربوا الغربان، لكني منعتهم بقوةٍ، وشججتُ رأس مديري عندما جاء بصحبة رجل أمنٍ؛ كي يطرد أصدقائي، وتركتهم يستريحون على مكتبي وسط أوراق الملفات التي تملأ سطح المكتب.

في الأيام التالية لم ينقطع هبوط أصدقائي عليَّ في الشارع، وأيضًا في البيت. وذات صباحٍ، استيقظت زوجتي لتجد صالة البيت مليئةً بالغربان التي تتجول في أرجاء المنزل، كنتُ ممدا في منتصف الصالة، وكانوا يدغدغونني

بمنتهى اللطف، صرختْ زوجتي فجأةً، فارتعبت الغربانُ، وطارت.

لم تصرخ زوجتي بعد ذلك، لكنها لم تتوقف عن البكاء، جمعت ملابسها وملابس الأطفال، وغادرت المنزل. وكان هذا أفضل ما فعلته في السنوات الأخيرة.

الآن أتـوق للطيران مع أصدقائي. هذا الصباح يبدو رائقًا، الشـمس قرصٌ ذهبيٌّ يصعد في السـماء بكسـلٍ، أكلنا معًا، ولاعبتهم، ودغدغوني كعادتهـم بمناقيرهم الرقيقة اللامعـة، ووقفنا على سـور الشرفة نرفرف بأجنحتنا ونستعد للطيران.

شكرٌ غيرُ ممنـون

للرفيقة.. تشتينا دي ناتالي.

للأصدقاء.. أشرف يوسف، أحمد وائل ورندا شعث.

عن الكاتب

محمد فرج

ـ وُلد بالإسكندرية، ويعيش بالقاهرة.

ـ عمل كصحفي ثقافي في عدة صحف ومواقع منها: أخبار الأدب، البديل، السفير "اللبنانية"، وموقع باب المتوسط وغيرها.

ـ يشارك في تحرير القسم المصري من موقع "مراسلون" المختص بشئون شمال أفريقيا.

البريد الإلكتروني: ***ma7ammed.farag@gmail.com***

فهرس

- أثـر المنديـل 9
- يقـينٌ 13
- مهمَّـة عمـلٍ 17
- أعـمالٌ حكوميـةٌ 23
- يـومٌ طويـلٌ 29
- ترتيبـاتٌ للمشـهد النهائـي 43
- حفلـةٌ 49
- نوستالجيا 53
- بـدون تخطيـطٍ 63
- رغبـةٌ محتملـة 71
- طلـبُ مسـاعدةٍ 79
- خططٌ طويلة الأجـل 87
- وجبـةٌ بـاردةٌ 95
- عشـاءٌ خـاصٌّ 103
- جاذبيـة 109

"عالم يعجّ بالهواجس والرغبات، بالعنف
والجنون. عالم بيني قد ينجلي فجأة في لحظة يصل فيها
الضجيج إلى أوجه، بين عربتي قطار، أو في طابور أمام مكتب حكومي،
لدرجة يضيع فيها الكلام بين الألسنة والآذان. أو قد يلوح في متاهات
العمل المعاصرة، حيث يصل الاغتراب إلى أقصاه في لحظات لعب أدوار
مصطنعة أثناء لقاءات التشغيل، أو لحظات القيام بأعمال لا يمكن فهم
جدواها. من بين ثنايا هذه اللحظات وغيرها يطل عالم غريب، شديد الرقة
وشديد التشوه في آن. تقترب الكتابة كثيراً من الأحلام في هذه المجموعة،
حتى تصبح المسافة الفاصلة بينهما متناهية الصغر، ومن ثمّ شديدة
الخطورة؛ إذ إن أي حركة غير محسوبة يمكن أن تؤدي إلى انهيار التوازن
الدقيق. ولا تخرج كل القصص سالمة من هذا الرهان الخطير. فهناك قصص
تنجح في تحقيق استقلالية عن الحلم، وأخرى يصعقها سحر الحلم إذا حدث
وتلاشت تلك المسافة الصغيرة. لكن المثير هو إصرار الكتابة طوال قصص
المجموعة على تلك الاستراتيجية الخطرة. كأن رهانها هو بالضبط تلك
المسافة المتناهية الصغر التي تفصلها عن الحلم. فتظل تسير على الحافة
قصة وراء أخرى، مهما كلفها ذلك من ثمن".

هيثم الورداني

الغلاف للفنان: وليد طاهر

9 789774 905186

Elain Publishing House
دار العين للنشر